الأبعاد المجهولة 2

من مذكرات مراهق كويتي...



م. عبدالوهاب السيد الرفاعي



نوفا بلس للنشر والتوزيع
NOVA PLUS FOR PUBLISHING AND DISTRIBUTING
الطبعة (11)

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما امكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج اكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين ايديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

الأبعاد المجهولة (2)

عبد الوهاب السيد الرفاعي

تنويه

يسألني القراء باستمرار ودون توقف عن مدى واقعية القصص التي أكتبها.. ولهؤلاء الأعزاء أقول: أعتذر بشدة عن الإجابة لأسباب لا مجال لذكرها.

كلمة من القلب..

قد تكون الأغلبية الساحقة منكم لا تتذكرني.. وربما لم يسمعوا عن شخصي المتواضع أصلا.. بل إن قارئا قد يتساءل: أي جنون هذا الذي دفعني للتفريط في نقودي مقابل كتاب يحمل عنوانا سخيفا ومليئا بالأكاذيب؟ !!.. ولصديقي الممتعض أقول قبل أن يفعلها ويقذف بالكتاب من أقرب نافذة: صبرا يا أخي العزيز.. لقد وصل الكتاب إلى يديك.. فلمَ لا تجرب.. وتسبح بين سطوره وتعرف أي تجارب رهيبة تعرضت لها وعشتها رغم عمري الصغير الذي لم يتجاوز الـ 18 إلا بأسابيع قليلة؟!!.

يقول البعض أن التجارب التي تعرضت لها لا تصدق وأن عقلهم يرفض تماما تصديق تلك الخرافات.. ولهؤلاء أقول: إن الأمور لا تقتصر دائما على الاقتناع الشخصي وهضم الفكرة فحسب!!.. ولو اعتمدنا في قياسنا للأمور على عقولنا فقط لوجدنا من ينكر وجود الفيروسات لأن عقله لا يستوعب وجودها!!.. حتى وإن أصابه مرض منها.. وقد حدث هذا في الماضي البعيد بالفعل.. بل وحدث هذا في الحرب العالمية الثانية أيضا عندما رفض اليابانيون تماما تصديق أن الدمار الذي حدث في (هيروشيما) سببه قنبلة واحدة، على الرغم مما رأوه بأعينهم!!.. وعلى كل حال فإن استنكار بعض الوقائع ورفض تصديقها لمجرد أنها لا تتفق مع الأمور التقليدية ليست ظاهرة جديدة.. فالناس على مر العصور أعداء ما يجهلون!!.. والرفض عندهم يسبق التصديق.. خاصة عندما يتعارض الأمر مع ما ألفوه واعتادوه.. وأنا على كل حال لا أطالبكم بتصديقي.. لكني أطالبكم بالاحترام لما ستقرؤونه.. وهذا حقي!!.

لازلت (خالد) الذي تعرفونه.. ولا زلت أعيش في عالمي الخاص بعيدا عن زحمة الحياة مع جدتي الحبيبة في شقتنا بمنطقة (الرميثية) والتي لم يمض على انتقالنا إليها أكثر من بضعة شهور.. تذكرون جيدا بأنني تخرجت من المرحلة الثانوية بتفوق وبمعدل مرتفع أهلني للالتحاق بكلية الطب.. وهأنذا بانتظار العام الدراسي الجديد الذي سيبدأ بعد قرابة الشهرين.

نعم.. لا زلت (خالد) الذي تعرفونه.. الراكض الأبدي وراء الأوهام.. والذي يعيش فترة غليان نفسي بيولوجي معروفة كحال أي مراهق.. فأشعر أن روحي كالجلد المحترق الذي يؤذيه أي شيء حتى أنسام الرياح!!..

فالعواطف الجياشة تملأ قلبي.. وتجعلني أرغب في التحليق بعيدا إلى المكان السحري حيث تكون طائرا مع حبيبتك بين النجوم في الفضاء اللامتناهي.. ليراك الناس من كوكب الأرض فيظنوك نيزكاً أو مذنباً!!.

ينتابني طوال الوقت ذلك الشعور الذي ينغص علي حياتي!!.. الضآلة!!.. وأدرك جيدا أن هذا الشعور هو طريقة من طرق (رفض الحياة).. أن تشعر أنك مجرور من قفاك لتعيش حياة لا تريدها.. نستطيع تشبيه الأمر بسائق سيارة متهالكة يدفعه أصحاب السيارات الفارهة دفعا خارج الطريق!!.. فيقف على جانب الطريق ليلعنهم.. ويلعن الطريق نفسه.. واليوم الذي فكر فيه بقيادة السيارات!!.

غريب أن أتحدث عن التعاسة والاكتئاب والموت طوال الوقت وكأنني شيخ في التسعين!!.. ربما لأنني غير قادر على مواجهة عالمي بأي شكل من الأشكال.. وأريد بالمقابل مكانا دافئا آمنا يشبه

فنار السفن الضالة.. كي يعود عقلي لسابق صفائه كعقل طفل في شهور حياته الأولى -ليس في خوائه بالطبع ولكن في هدوئه واستقراره- وأنا أعرف أن ما أتمناه مستحيل التحقيق!!.. لكنني لا أناقش أحلامي مع نفسي أبدا.

لقد كنت أظن أن ما مررت به من تجارب مروعة لم يكن سوى مرحلة من حياتي وقد انتهت بلا رجعة.. ولكن يبدو أنني لن أشبع استنزافا لأعصابي في عوالم ما وراء الطبيعة المشؤومة بسمائها القرمزية وبحارها الدموية وشخصياتها الشبيهة بعناكب حائرة ([1])!!.. كل هذه التجارب لن يعرفها أحد سوى من دنا مني إلى مسافة السنتيمترات وسمع صوت اصطكاك أسناني خوفا من هذا العالم..

إن غرائب هذا العالم لا تنتهي.. ويبدو أنني سأظل وحدي أراها وأندهش منها حتى اللحظة التي أغمض فيها عيني إلى الأبد.. فها أنا أتعرض لتجارب جديدة مروعة جعلتني عاجزًا عن تمييز الخط الفاصل بين من رأى الأهوال.. وبين الأهوال ذاتها.. قد يقول قائل: إن هذه القصص لا تخيف قطًا صغيرًا!!.. فأقول له: إن هذا شيء مؤكد.. فالقط الصغير لا يملك خيالا.. أما أنا فأملكه.. والخيال هو الذي يخلق الرعب!!.

فلنبدأ الآن إذا.. ولنستكمل مسلسل الأهوال التي عشتها في السنتين الأخيرتين.. ولكن أرجوكم ألا تنسوا أن مذكراتي هذه تحتاج -كما جرت العادة- إلى هدوء.. إلى صفاء بال.. إلى ليل.. فقصصي وتجاربي دائما ما تحتاج أن تعطيها حقها من التركيز والتفرغ.. وإلا كانت هراء!!.

أضيئوا الأنوار.. وخذوا نفسا عميقا.. واقلبوا الصفحة أو انظروا إلى اليسار حتى تعيشوا معي الأحداث الرهيبة التي عشتها.

خالد سليمان ال....

2004

حدث في ذلك البيت!!

كما هو واضح فإن اسم القصة: حدث في ذلك البيت!!.. لذا.. نستطيع أن نخمن جميعا بذكائنا المعهود أن هناك بيتًا في قصتي هذه.. وأن هناك أحداثا رهيبة جرت فيه.. ولكن كيف بدأت القصة؟!.. وماذا حدث في ذلك البيت بالضبط؟!.. وما هي المفاجأة المدوّية التي يحملها؟!.. فلنتابع لنعرف!!..

ها نحن في عام 2003.. فترة الصيف.. أيام قليلة مضت منذ قصتي الأخيرة (الغابة السوداء) وقد أقسمنا -الأستاذ (إبراهيم) وزوجته وأنا-أن نحفظ السر في صدورنا إلى الأبد.. لأن أحدا لن يصدقنا وسيتهمنا الناس بالجنون دون شك.. ألم تفعلوا أنتم؟!.. ألم تكذبوني وتتهموني بالجنون؟!.. من المؤكد أنكم فعلتم.

نسيت أن أخبركم أن شقتنا تقع في الدور الثالث من منزل تم بناؤه على نظام شقق للإيجار -وما أكثر المنازل من هذا النوع في (الكويت)-وهو بدوره يقع في حي هادئ جدا بعيد عن الشارع العام..

وفي وقت متأخر جدا.. حين يصمت الصاخبون ويعزف الليل لحنه العتيد الذي لا يسمعه سواي.. ترون كل نوافذ الحي مصمتة مسربلة بالسواد.. عدا نافذة واحدة مضاءة بضوء خافت جدا في طابق علوي!!.. نعم.. الكون كله نائم عدا شخص واحد يظل وحيدا ساهرا حتى الرابعة فجرا.. لماذا؟!.. لأنه وطواط آدمي.. إنه أنا!!.. فهذه شرفة غرفتي.. والإضاءة الخافتة هي إضاءة مصباح النوم.. فأنا لا أفوت أبدا السهر في شرفة غرفتي منذ بدأت الإجازة الصيفية.. لأن هذا يجعلني أشعر بانعزال تام عن العالم حيث أجلس في منتصف اللامكان أتأمل الكون كالعجائز.. وأنقي ذهني من ضوضاء الناس وكل الشوائب المتشابكة الأخرى التي تكاد تذهب صفاء المشاعر والفكر..

أفعل هذا كل ليلة من ليالي الصيف تقريبا.. حيث أضغط على زر وحدة التكييف.. ثم أفتح باب الشرفة وأتأكد أنه لا توجد أي حشرات هنالك.. فأنا أهاب الحشرات الغامضة التي قد تدخل غرفتي وتملأ المكان صخبا.. بعدها أعد لنفسي كوبا من العصير الباااااارد الذي يتكاثف حوله البخار!!.. هل تعرفون ليالي الصيف هذه؟!.. أحضر مقعدا إلى الشرفة المظلمة إلا من ضوء القمر وضوء النوم الخافت.. أنسام وحدة التكييف الباردة تداعب ظهري وتساعدني على البقاء في هذا الجو الحار..

ومن جهاز التسجيل.. بصوت خافت لا يسمعه سواي.. يشدو (عبد الحليم حافظ) بصوته الحزين المفعم باللوعة ويدغدغ كل آلامي.. يتحدث عن حب ضائع.. عن حياة قاسية.. عن ديار الأحباب.. عن كل شيء حزين يعتمل في صدرك.. ولا تجد الجرأة كي تفصح عنه حتى لنفسك..

يأتي بعدها أهم ما في الأمر!!.. إن أفضل ما أفعله في ليالي الصيف شديدة الاسوداد كهذه أن أمسك قلمي ليداعب الورق.. وأكتب خواطري.. وهو أمر معتاد لمن لا يجد في نفسه القدرة على الفضفضة.. أو لا يجد الشخص المناسب الذي يستطيع تفهم المشاعر والأحاسيس التي تكتنفه.. دعك أنه من خلال الورق تنطلق مشاعري وأحاسيسي بكل حرية.. فلا شيء كالكتابة يقودك مباشرة إلى الروح.. إن الصوت قد يكذب وقد يحبط الخيال.. لكن الكتابة تفتح عالما براقا هائلا من السحر والرومانسية!!..

ثم أشرع أتأمل القمر وأحدّثه بهمّي في الليل.. ليل (الرميثية) الحزين.. متعبة هي (الرميثية)..

وحزينة.. لكنها برغم تعبها لا تنام.. تظل ساهرة تحرسني.. أو هذا ما أشعر به..

وهناك بالطبع الشعور المعروف لكل من أنهى هراء المدرسة بأن الكون قد قرر أن يتجمل قليلا ويعتذر عن فظاظته السابقة.. أسأل نفسي في حيرة؟!.. هل أنا سعيد الآن بعد أن انتهى كابوس المدرسة؟!.. لا توجد سعادة حقيقية بوجهة نظري.. إن تعريف السعادة الذي أعرفه هو أن تكون لديك القدرة على خداع نفسك بأن كل شيء على ما يرام!!.. وأنا لا أستطيع خداع نفسي!!.. هل أنا سعيد؟!.. قطعا لا.. ولو كنت سعيدا لما سألت نفسي هذا السؤال!!.. هكذا هي حياتي.. سلسلة من الوحدة والإحباطات والأيام المتشابهة كحبّات العدس.. سوى ما عكر صفوها في السنتين الأخيرتين من تجارب رهيبة زعزعت روحي وقلبت كياني!!..

أتطلع إلى النجوم بأسى.. فأشعر وكأنها تلوح لي وتخبرني كم هي سعيدة في بعدها عن عالمنا.. كم أعشق لمعانها الشفاف الرائع.. كم أتمنى أن أعرف أسرارها وأسمع همسها.. وحين أدرك أنني أعجز عن ذلك.. أشعر بمزيد من الحزن.. وتترقرق الدموع في عيني!!.. إن الحزن جميل إلى درجة الثمل.. إلى درجة الإدمان.. وللمزيد من الحزن.. تنفجر الألغام واحدا تلو الآخر في أرض ذكرياتي.. وأتحسر على حبيبتي (إيما).. وأبكيها.. لا زلت أبكيها!!.. فهي حبيبة عمري وأجمل ما حدث لي في حياتي..

ما أجمل الذكريات.. تجعلك كالمجنون!!.. بعد دقائق من الغوص في بحر ذكرياتك تفطن أنك كنت تكلم نفسك وتردد عبارات قلتها لحبيبتك.. وتضحك وتقطب استجابة لأفعال أشخاص لا وجود لهم!!.. لقد أضاءت حبيبتي التي رحلت إلى النجوم شمسا من الاهتمام في صدري الضيق الملول.. حبيبتي التي جاءت من بعيد.. من قلب الكون حيث تنعس الأسرار.. من وراء السُدُم في المجرات البعيدة.. من كهوف لم يزرها بشر.. من جزر لم ترسم على خريطة.. من كواكب لم يرها مرصد..

كانت تسألني:

-ماذا ترى حين تنظر إلى السماء؟!

فأجيبها بهيام:

-أرى عالما آخر يجذبني إليه.. أرى نجوما تضيء بداخلي لتمحو جميع معالم الألم..

لقد رحلت حبيبتي وتركتني أتضاءل أكثر وأكثر!!.. أقرأ أحيانا -على سبيل التغيير-بعض الكتب التي تدعو إلى التفاؤل.. وتطلب من الإنسان أن ينظر إلى النصف الممتلئ من الكوب.. ولكن.. ماذا لو كان كوب الحياة فارغاً أساسا؟؟!!..

و..!!!! هأنذا أعود مرة أخرى لهوايتي في الاستطراد ووصف آلامي.. إنها غريزة كل إنسان أن يصف أحزانه وآلامه لمن يستمعون إليه.. لذا.. سأتوقف عن الثرثرة التي أراهن بأن أغلبكم قد قفز إلى نهايتها.. ولنعد إلى قصتنا..

كنت جالسا تلك الليلة في شرفة غرفتي بأجوائها الرائعة التي لا يبدد روعتها سوى ذلك البيت الذي تطل الشرفة عليه.. نعم.. إنه البيت الذي تحمل قصتي عنوانه.. بيت مهجور من طابق واحد -وضع ألف خط تحت كلمة مهجور- مظلم تماما كقاع المحيط!!.. يطل على شارعين ويحمل بناؤه طراز أوائل الثمانينيات الشهير حيث الحجر الجيري الذي كان موضة تلك الفترة.. بيت يمكنك أن تراه في كل مكان بل ويمكن أن يكون بيتك شبيها به ما لم تكن مليونيرا أو فقيرا معدما.. ولا يميزه سوى مساحته الكبيرة كحال معظم بيوت منطقة (الرميثية)..

وبحكم وجود شقتنا في الدور الثالث فإنني أستطيع أن أرى سطح البيت جيدا.. حيث قطع القرميد الملقاة في كل مكان.. والمقاعد المهشمة.. وهوائي التلفزيون الصدئ.. وحبل غسيل قديم للغاية!!.. كما أرى رؤوس أشجار الحديقة الداخلية التي يبدو عليها علامات جمال وروعة محا الزمن معظمها بعد أن ذبلت تماما.

كنت خلال فترات جلوسي في الشرفة في الأيام الماضية أسترق النظر أحيانا كثيرة إلى ذلك البيت.. إلا أنني لم أرَ شيئا غير عادي على الإطلاق.. سوى في تلك الليلة!!.. كانت الساعة قد قاربت الثالثة فجرا حيث خلا شارع الحي تماما من أي سيارة عابرة.. عندها فقط لمحته!!.. شخصا يرتدي ملابس شبابية خفيفة.. يلتفت يمينا ويسارا بتوتر وهو يحمل شيئا بحجم صندوق صغير ملفوفا بعناية متجها به إلى ذلك البيت المهجور!!.. عندها تحفزت حواسي!!.. إلى أين يتجه هذا الأبله؟ !!.. أحاول الاختباء كي لا يراني إذا نظر ناحية شرفتي.. لحسن الحظ أنني لا أضيء أنوار الشرفة على الإطلاق والضوء الذي أستخدمه للكتابة هو ضوء خافت ينبعث من غرفة نومي.. لذا فمن العسير أن ينتبه لوجودي.. أحاول أن أتمعن النظر أكثر.. و.. عرفته!!.. إنه أحد أولاد جيراننا.. أشاهده كثيرا متسكعا مع أصدقائه عندما أخرج من الشقة.. هو في ال 17 من العمر.. لا يدخل بيته إلا ليغادره!!.. كحال معظم الشباب.. خاصة في إجازات الصيف.. لحظة!!.. إنه يتسلق سور البيت المهجور!!.. و.. هووب.. صوت منخفض جدا تكاد ألا تسمعه.. مما يدل على نزوله من على سور البيت إلى داخل الفناء.. ثم اختفى بعدها تماما.. لم يعد في محيط بصري.. انتظرت لأكثر من ساعة لكنه لم يظهر مرة أخرى!!.. يبدو أنه قد خرج من السور الخلفي.. ما الذي كان يحمله بيده؟ ؟!.. هل يمارس نشاطا مشبوها ما؟؟!!.. وما الذي يجعله يتسلق السور ويدخل هذا البيت أصلا؟ ؟!.. لا أدري.. ثم أنه لم يعد إلى بيته بعد وإلا كنت قد رأيته.. فكرت في الاتصال بالشرطة.. على الأقل لإبلاغهم عما فعله هذا الصبي.. فاقتحام البيوت -حتى المهجورة منها-جريمة يعاقب عليها القانون لأنها أملاك خاصة.. لكنني غيرت رأيي!!.. فقد ظننت أن الأمر لا يستحق الاهتمام..

ذهبت إلى الفراش بعد أن ثقلت جفوني ودسست نفسي تحت اللحاف.. وتحت ضوء النوم الخافت وصوت (enya) الحزين الذي يشعرني أنني أطير بلا أجنحة.. كان من الطبيعي أن أنسى ما رأيت وأزور عالم الأحلام..

لم أستيقظ بعد سهرة الأمس إلا في الحادية عشرة صباحا على صوت جرس الباب.. ثم الخادمة الآسيوية التي تطرق باب غرفتي لتخبرني أن هناك شخصا ما يطلب رؤيتي!!.. خرجت من غرفتي متثاقلا متسائلا عن هوية هذا الزائر.. فليس لي أصدقاء كما تعلمون!!.. كنت مرتديا منامتي وأثر النوم لم يفارق عيني بعد.. فإذا بفتى قصير القامة هزيل البنية.. لا يتجاوز ال 14 من العمر.. أنا أعرف هذا الفتى!!.. أعتقد أن اسمه (زياد).. وهو فتى له عيوب ومزايا كل الأولاد في مثل عمره -إن كانت لهم مزايا- يتحرك دائما وسط مجموعة صغيرة من أصدقائه فلا يفعلون شيئا تقريبا سوى لعب الكرة بجانب المسجد القريب أو الجلوس دون هدف عند باب منزلهم.. ولكن -وهذا الأهم- (زياد) هو الشقيق الأصغر على حد علمي لذلك المتسلل الذي رأيته في الأمس!!.. بالطبع استغربت تلك الزيارة.. فلا تربطني بهذا الفتى أي صلة.. ومعرفتي به شبيهة بمعرفة هز الرأس كما يصفها الإنجليز.. هل للأمر علاقة بما رأيته في الأمس يا ترى؟ !!..

-(خالد)؟!

قالها بخجل شديد.. فرددت عليه:

-أهلا وسهلا..

قلتها بلهجة مرحبّة ودودة وأنا أدعوه إلى الدخول والجلوس.. لم يكذب خبرا!!.. فدخل مسرعا وجلس في الصالة وقد بدا عليه التوتر بشكل واضح!!.. بيني وبينكم.. توجست من وجوده!!.. بدا لي وكأنه سيحاول إقناعي.. إقناعي بماذا؟ !!.. بشيء يصعب أن أقتنع به بكل تأكيد!!!.. ثم أن هذا الفتى يخشى شيئا.. فأنا أفهم جيدا تلك النظرات المذعورة القلقة المتوترة!!.. رأيت أن أعطيه بعض الوقت ليستجمع أفكاره.. كما أن واجب الضيافة يحتم أن أقدم له شيئا!!.. ناديت الخادمة.. وهي بالمناسبة شديدة الكبرياء تعاملنا باحتقار لا مبرر له ولسان حالها يقول: أنا لست خادمة لأبيكم.. إنه الزمن الأغبر الذي يجعلكم تصدرون الأوامر لي!!.. لكنها والحق يقال لا تثير أي مشاكل وتؤدي عملها بكل أمانة.. فطلبت منها تقديم شيء لضيفنا..

تشجع (زياد) قليلا بعد هذا الترحاب.. ويبدو أنه لم يرد الدخول في أي مقدمات.. إذ قال باستعجال وبنوع من التوتر:

-لم أجد أحدا ألجأ إليه في بادئ الأمر.. لكن عندما زارتنا جدتك في البيت تذكرتك!!.. ووجدتها فرصة كي أتحدث معك على انفراد.. أريدك بأمر هام!!.. أرجوك أن تستمع إلي!!.

لقد نسيت أن أذكر لكم معلومة مهمة.. فإن كنت إنسانا انطوائيا إلى درجة غير معقولة.. فإن جدتي الحبيبة اجتماعية إلى درجة غير معقولة أيضا!!.. لذا سرعان ما ذاب الجليد بينها وبين جيران الحي كلهم تقريبا بعد فترة قصيرة من انتقالنا للشقة الجديدة.. وباتت تزورهم أوقاتا كثيرة في مختلف المناسبات.. حتى أصبح جيراننا يحبونها.. ويسألون عنها ويزورونها بدورهم بين حين وآخر.. أما أنا.. فعلاقتي بهم كعلاقتي بالكواء الذي في فرع الجمعية!!.. لا يمكن أن تزداد عمقا أو تسوء!!..

كنت أتوجس خيفة من هذه المقدمات.. لذا فقد وضعت ساقا على ساق ورسمت على وجهي تأثير اهتمام غير مصطنع..

وأخيرا تحدث قائلا:

- (خالد).. إنني بحاجة إلى شخص قريب نوعا ما من عمري.. موحي بالثقة.. مثالي وكتوم.. ومختلف.. وعلى قدر هائل من الحكمة.. أحتاج إلى شخص رزين.. إنه أنت.. أنا أحتاج إليك بشدة!!.

لا بد أن طباعي المتحفظة المنغلقة الشبيهة بطباع النسر قد راقت له!!.. و..:

-(خالد).. لقد اختفى أخي الأكبر..

سألته باستغراب:

-ماذا تعني؟!

أخذ نفسا عميقا كمن يحاول طرد التوتر عن روحه.. ليقول:

-لقد خرج أخي في وقت متأخر من مساء أمس ولم يعد حتى الآن!!..

تذكرت أخاه الذي رأيته عندما كنت جالسا في الشرفة!!.. فتحفزت حواسي وسألته بحذر:

-أين من الممكن أن يكون؟!

قال بتوتر:

-أنا أعرف أين ذهب.. ولكن لا أجسر على مواجهة أهلي بهذا..

نظرت له متسائلا عما يعنيه.. فقال بأسف:

-أخي يمارس بعض الأنشطة المشبوهة.. وقد نصحته كثيرا بالابتعاد عن المشاكل.. لكنه لا يستمع إلي!!..

سألته باستغراب:

-وما هي الأنشطة المشبوهة التي يمارسها أخوك؟!

لم يخبرني.. بل نظر إلي نظرة خجولة من طراز (هذا -ليس -من -شأنك) !!..

شعرت بالدم يصعد إلى رأسي.. وكأن الأحمق يظن أن قضية حياتي هي معرفة أسراره.. أنا غير مهتم بأسرار هذا الإنسان.. لو شاء فليقلها.. لكني لن أجهد ذهني لحظة في التنقيب عنها!!.. ويبدو أنه رأى في وجهي علامات الاستنكار لتصرفه.. لذا تدارك نفسه بسرعة قائلا بشيء من الحرج:

-أخي يتاجر في الأفلام الخلاعية!!.. يبيعها على شكل أقراص مدمجة (DVD)..

هززت رأسي بأسف واشمئزاز.. قبل أن يستطرد (زياد) قائلا:

-لقد ضبطه والدي أكثر من مرة وانهال عليه ضربا.. وأصبح يقوم بتفتيش غرفته بين حين وآخر ليتأكد من عدم وجود أي شيء مشبوه.. لذا فإن أخي يقوم مؤخرا بإخفاء أقراصه المدمجة في مكان آخر.. في ذلك البيت المهجور المقابل لشقتكم.. يتركها هناك لصديق له كي يأخذها ويبيعها.. لقد أصبح هذا البيت هو الوكر!!.

هززت رأسي بمعنى أن كل ما قاله جميل.. ولكن لم أفهم حتى الآن دخلي أنا في الموضوع!!!.

-(خالد)..

-همم!!..

-والدتي تكاد أن تجن خوفا على أخي.. ووالدي عاجز عن عمل أي شيء.. كما أننا لا نجرؤ على إقحام الشرطة في الأمر!!.. لأننا نخشى أن يكون أخي قد ارتكب عملا أخرق.. فوالدي من فئة (البدون) وأنت تعلم جيدا أن أي مشكلة مع الشرطة قد تقضي على كل آمالنا في الحصول على الجنسية الكويتية التي نسعى إليها منذ سنوات طويلة!!.. ثم استطرد قائلا بحزن:

-لك أن تتخيل الحال عندنا في البيت.. إن جدت.ك م.ع والدتي الآن تحاول أن تهدئ من روعها..

هززت رأسي متفهما.. ثم قلت له بصدق:

-أتفهم ظروفكم تماما يا (زياد).. ولكن لا أفهم حتى الآن دوري في الموضوع!!..

قال بحذر:

-لقد جاءتني فكرة غير عادية!!..

سكت قليلا ليزدرد لعابه.. وأكمل بحذر:

-لا بد أن أدخل ذلك البيت!!..

وأضاف في رهبة وهو يلتفت يمينا وشمالا:

-لكن المشكلة أنني لا أجسر على دخوله وحيدا.. إنه مخيف وله رهبة كما تعلم.. خاصة في الليل!!.. ولا أستطيع دخوله نهارا خوفا من أن يراني أحد ويسبب لي مشكلة..

ثم قال بابتسامة مليئة بالرجاء:

-فإن لم تكن نسرا.. كن عصفورا تحت جناح نسر على الأقل.. أنا أحتاجك أيها النسر كي تدخل معي ذلك البيت!!..

قالها (زياد) وأنا أجرع ما بقي في كأسي.. وكان هذا كافيا كي يتوقف العصير في حلقي بالطبع!!.. رحت أسعل بشدة فناولني لكمة بين لوحي كتفي.. لأشعر عندها بتحسن.. وأقول له بحدة لم أقصدها:

-أرجوك لا تقحمني في أمر كهذا.. و....

قاطعني برجاء قبل أن أكمل كلامي:

-(خالد).. إنني واثق من أن أخي قد دخل ذلك البيت فجر اليوم قبل شروق الشمس.. كان من المفترض أن يخفي أقراصه المدمجة الجديدة فيه.. لكنه لم يعد حتى الآن.. وهاتفه النقال مغلق!!.. أنا أعرف أنه يترك مع أقراصه المدمجة رسائل لصديقه للاتفاق على بعض الأمور بشأن بيع وترويج هذه الأفلام.. فهو يتعامل بحذر في نشاطه المشبوه ولا يستخدم الهاتف إطلاقا.. ربما نجد إحدى رسائله لشريكه في هذا البيت.. أي شيء قد يدلنا على مكانه!!..

قلت له بدهشة بالغة.. غير مصدق ما يطلبه مني:

-هل.. هل جننت؟!.. تريد مني أن أقتحم معك بيتاً مهجورا؟؟.. إن الأمر مخالفا للقانون.. ثم أنني لا أجسر أنا الآخر على فعل هذا.. إنني بكل صراحة أخشى الظلام!!.

رد بإلحاح:

-إنه أخي يا (خالد).. أخي.. أخشى أن يكون قد أصابه مكروه.. أرجوك ساعدني.. فأنا لا أريد دخول ذلك البيت من باب اللهو والمتعة!!..

لحظة.. تذكرت شيئا هاما:

-(زياد).. كيف تعرف أسرار شقيقك بهذه الدقة؟!

رد بحنق:

-كثيرا ما أكون معه حين يقابل أصدقاءه.. فهو يعلم أنني لن أشي به أبدا.. إنني بالمقابل أنصحه كثيرا كي يكف عما يفعل!!.. لكنه لا يصغي متعللا بأننا نحتاج إلى المال..

ثم زفر بقوة وهو يقول:

-لا أستطيع أن أنكر حاجتنا إلى المال.. فالمصروف الذي نأخذه من والدي مضحك.. بل إنني -وأصدقك القول-كثيرا ما آخذ من أخي مصروفي الشخصي دون علم والدي.. فأنا أحتاج إلى المال أيضا.. ولكن.. أخشى أن يقع أخي في قبضة الشرطة.. إن هذا سيحطم عائلتنا تماما..

تنهدت قليلا.. وقلت له بأسف ورجاء:

-أرجوك أن تنسى الأمر برمته.. فأنا لن أدخل ذلك البيت أبدا.

صاح في لوعة حقيقية:

-لكنني أحتاج إليك.. أرجوك!!..

هززت رأسي آسفا أن لا جدوى هنالك.. في هذه اللحظة أمسك بذراعي راجيا كأنما يوشك على الغرق!!.. المشكلة أن التهذيب يجبرنا دائما على إظهار عكس ما نبطن.. إلا أن التهذيب له حدود أيضا!!.. فقلت له بنوع من الحدة وقد نفد صبري وبدأ مخزون الود الذي أملكه يستنزف:

-إن أحدا لا يفعل شيئا كهذا على سبيل المجاملة.. ألا تفهم؟؟!!!..

-بلى ولكن...!!

لم يجد ما يقوله.. فسكت.. وقد بدا محبطا إلى أبعد حد.. هل فهم أخيرا أنه لا جدوى من التوسل؟!..

سألته:

-لماذا لا تجد أحدا غيري؟!..

رد بعصبية لا تتناسب أبدا مع سنه:

- ما رأيك لو أتاك صبي في مثل عمري وأخبرك بهذه القصة؟!.. ألن تقول له: اذهب يا حبيبي والعب بعيدًا؟؟!!.. لقد ظننتك مختلفا.. ولكن ها أنت تقولها لي بصيغة مختلفة.. كما أنني لا أستطيع الاعتماد على أصدقائي.. لأنني لا أثق بكتمانهم للسر..

ثم أكمل بحنق:

- المشكلة أن الجميع سيقترحون إبلاغ الشرطة.. وهذا حل غير وارد إطلاقا.. لقد ذكرت لك السبب.. كما إنني أخشى دخول ذلك البيت وحيدا.. لقد أخبرتك بذلك أيضاً!!..

ترقرقت الدموع في عينيه حتى شعرت بشفقة حادة تجاهه.. وقال:

-لقد سألنا أصدقاءه وجميعهم لا يعرفون عنه شيئا.. لذا فالخيط الأخير هو أن أدخل ذلك البيت لعلي أجد ما يدلني على مكانه.. ثم أنه مجرد بيت مهجور.. صحيح أنني لا أجرؤ على دخوله وحيدا أنا الآخر -خاصة في الليل-لكننا لن نخاف لو دخلناه معا.

قلت له بصراحة وبصوت لا يخلو من الأسف:

-أنت مخطئ إذا!!.. صحيح أن البيت ليس قلعة من قلاع أوروبا المليئة بالأشباح.. لكنه اكتسب هيبة خاصة به بالفعل شأن أي بيت كبير مهجور.. وأقولها لك للمرة الثانية.. هذا أمر يعاقب عليه القانون!!.

نظر إلي بإحباط.. وقال يائسا:

-لا أستطيع أن أعتمد على أحد غيرك يا (خالد).. ثم أنك الآن تعرف سر أخي.. وأخشى أن تبلغ عنه الشرطة..

قلت له بصدق:

-أقسم بالله العظيم بأنني لن أفتح فمي.. سرك في بئر سحيق.. اطمئن.

تحولت نظراته الحزينة الراجية إلى نظرات برود وكراهية عندما أدرك أن لا أمل هنالك إطلاقا في قبولي لهذه المهمة.. فقال بكبرياء:

-كنت أظنك مرهف الحس يا (خالد).. فتبين لي أنك معدومة.. أهنئك على نقاء ضميرك..

أخرسني كلامه تماما وعجزت عن الرد!!!.. ثم نظر إلي نظرة باردة.. ومط شفتيه ولسان حاله يقول: يا خسارة الرجاء فيك!!.. نهض بعدها خارجا من الشقة.. ودّعته فلم يرد علي.. فالسكوت هو أسرع طريق للاحتقار!!!.. خاصة عندما أوصد الباب في وجهي بطريقة أقرب إلى الصفعة على قفاي!!.. لأقف بعدها حائرا بضع دقائق.. الحقيقة هي أنني لا أجرؤ على دخول مكان كهذا حتى لو دفعوا لي ذهب العالم كله!!..

إن دخول هذا البيت يحتاج حافزا قويا.. حافزًا أقوى بكثير مما يقدمه لي (زياد).. ثم أنني مرتاب بطبعي.. وأؤمن تماما بأنني مصاب بنوع خاص من النحس يوقعني في شراك كل ما هو غريب.. وغير عادي.. ومرعب!!..

عادت جدتي إلى الشقة.. وأخبرتني بحال أسرة الولد.. الجميع يبحثون عنه.. ووالده يخشى إبلاغ الشرطة.. و.. كلام كثير قالته لي سمعت معظمه من (زياد) كما تعلمون.. ولم أخبرها بالطبع بأمر تلك الزيارة لأنني وعدته بكتمان الأمر متوقعا أن دوري في هذه القصة قد انتهى عند هذا الحد.. ولكن يبدو أن الوغد لا ييأس.. فقد غدت الأيام الثلاثة التالية جحيما لا يطاق.. خاصة مع اختفاء أخيه تماما وعدم العثور على أي أثر له.. فبات هذا المعتوه يتصل بي طوال الوقت ويواصل رجاءه بالحاح!!.. إن الذبابة تستطيع أن تدمر حياتك إذا كنت مثلي إنسانا متوترا طوال الوقت أصلا.. فكيف أستطيع أنا الذي أبدل وضع قدمي ألف مرة عند الجلوس من فرط الملل أن أتحمل تلك الذبابة البشرية اللزجة اللحوح (زياد)؟؟!!..

كان يتصل بي ليقول:

-ظننتك شجاعا لا تخشى شيئا..

فأرد عليه بعصبية:

-وكنت مخطئا.. أنا جبان جاهل.. فهل هذا كاف لتتركني؟!..

ثم أقفل سماعة الهاتف حتى لا أنفجر في وجهه.. لقد حذرته مرارا من هذا الأمر.. ولكن الأمر شبيه بأن تحذر طفلا من الكهرباء.. فهو لن يفهم أبدا ما لم يشعر بالصعقة الكهربية.. أو يرى أحدا تقتله الصدمة.. و(زياد) لن يفهم ما سيحدث لو رآنا أحدهم وأبلغ الشرطة.. سنكون عندها في موقف لا نحسد عليه أبدا.. دعك من أن القصة كلها لا تعنيني.. إن الأمر شبيه بمباراة في كرة اليد بين (كينيا) و(تنزانيا) لا ناقة لي فيها ولا جمل!!..

لم يتغير رأيي إلا في اليوم الرابع من اختفاء أخيه.. كيف؟!.. لقد اتصل بي وهو يقسم بأغلظ الأيمان أنه سيدخل البيت وحيدا في وقت متأخر من هذه الليلة.. قال هذا بكلمات سريعة جدا كي يسمعني أكبر قدر من الكلام ويشعرني بالذنب قبل أن أضع السماعة في وجهه كما يتوقع!!..

عندها فقط تغيرت نظرتي للأمر.. فقد تحرك ذلك الكائن الغريب الذي يسكن عادة تحت (جِلدك) ويخرج إليك قبل النوم كل ليلة ليمارس (جَلدك)!!.. إنه الضمير!!!.. آه أيها الضمير الراقد كالثعبان في أعماقي.. تبا لك.. لماذا تحركت في بطء لتلومني على عدم مرافقتي لهذا الفتى.. الضمير الرابض في أعماقي يسألني عن الشهامة!!.. إن الفتى لا رفيق له بين الناس وهو مسكين يريد

إنقاذ شقيقه بعيدا عن متاعب الشرطة!!.. وفوق هذا يتصرف بمسؤولية تروق لي بكل صراحة رغم صغر سنه!!!..

ها هي الكيمياء المعقدة في الذهن البشري تؤدي عملها ببطء لكن بثقة!!.. سرعان ما يتحول حمض الكبريتيك الحارق إلى ملح كبريتات النحاس المسالم.. وتتحول أبشع الأفكار وأكثرها إثارة لنفورك إلى أفكار معقولة ومنطقية للغاية!!.. وهكذا في النهاية!!.. قررت أن أرتكب الحماقة وأدخل معه ذلك البيت!!!.. مشكلة أبطال القصص أنهم يتصرفون بتهور مستفز للغاية!!.. يصرون دون سبب واضح على فعل كل ما لا يجب فعله!!.. كنت أظن أنني سأكون أذكى منهم وأقبع في فراشي هذه الليلة.. لأنني أعلم جيدا بأنني عاجز عن لعب دور الشجاع الواثق ولو مرة واحدة في حياتي.. لكنني وجدت نفسي شيئا فشيئا مبالغا نوعا ما في رفضي.. لقد فكرت في الأمر فوجدت أنني لن أخسر شيئا بالفعل.. سأدخل البيت برفقة (زياد) وستزيح هذه الرفقة معظم مخاوفي من الظلام.. الشرطة؟ ؟!.. سندخل البيت في وقت متأخر جدا من الليل كما تعلمون ولن يرانا أحد -أو هذا ما أتمناه-و.. وجدت رقم هاتف منزله في مفكرة هواتف جدتي.. واتصلت به في التاسعة مساء معلنا عن موافقتي دون أن تعلم جدتي ودون أن يعلم أحد من أهله بالطبع!!.. وهنا تبدأ القصة!!.. القصة التي ستتخذ منحى آخر غير ما نتوقعه جميعا!!. يقولون في (مصر): دخول الحمام ليس كالخروج منه.. ومشكلة هذه الأمثال الشعبية أنها دائما ما تكون صادقة إلى درجة تثير الغيظ فعلا!!.

كما اتفقنا تماما.. خرج كل منا متسللا من منزله في تمام الساعة الواحدة والنصف بعد منتصف الليل.. كنا قد اتفقنا على أن نلتقي عند سور البيت في الناحية التي تطل عليها شرفة غرفتي.. وكان الطقس شديد الحرارة.. فنحن في شهر أغسطس كما تعلمون..

كنت مرتديا حذاءً رياضيا.. وملابس خفيفة.. وأحمل مصباحا يدويا صغيرا.. أما هو فقد ارتدى شورت وفانلة ومنديلا فوق رأسه.. ومن فوق المنديل وضع الكاب الواقي!!.. حتى بدا لي كأحد جنود الحملة الإنجليزية في (الهند)!!.. بل وكان يحمل معه حبلا!!..

-لماذا الحبل؟!

سألته بدهشة!!.. فأجاب ببساطة:

-لأنهم يحملون حبلا دائما في الأفلام!!..

هذا الأحمق يظن أنه سيتسلق جبال الهمالايا.. لا يهم..

توقعت أن يشكرني على موافقتي للدخول إلى هذا البيت وأن يصارحني كم أنا رائع!!.. إلا أنه لم يقل حرفا.. بل كان عمليا للغاية.. فقد نظر إلي نظرة من طراز (النسرع -قبل -أن -يرانا -أحد).. فأومأت برأسي كناية عن الفهم!!.. ها نحن الآن نقف بجانب سور البيت الذي اتشح بعباءة المساء الكئيبة.. نتأكد من أن أحدا لا يرانا.. نلتفت يمينا وشمالا.. و.. تسلقنا معا.. أ.. أ.. أعني أنه تسلق السور في لحظات.. بينما لازلت أحاول التسلق.. إن الأمر في منتهى الصعوبة.. فلست رياضيا ولا أملك القوة البدنية اللازمة.. و.. هوووب.. تسلقت بصعوبة قبل أن أقفز على الأرض مرتطما بها بقوة!!.. إن المرتفع الوحيد الذي تسلقته في حياتي كان كومة رمال أمام باب بيتنا القديم والذي تركه عمال البناء هناك عاما إلى أن اختفى تماما!!.. طوال عمري مختلفا عن الآخرين.. لم أفعل أبدا ما يفعلونه من هم في مثل سني!!..

حسنا.. نحن الآن داخل أسوار البيت.. نهضت من على الأرض.. وشرعت أنفض الغبار الذي تراكم على ركبتي بنطلوني.. ثم.. نظرة فاحصة للتعرف على فناء البيت -أو (الحوش) كما نطلق عليه في الكويت-فناء كبير نوعا ما يمتلئ ببقايا الأثاث وقطع من القرميد هنا وهناك.. ولا ننسى الحديقة الداخلية الكبيرة المهملة التي تغفو في الظلام.. يخيل إلي بسبب الظلام الدامس أن الأشجار حية تصغي لكلامي وتراقبني في صمت!!.. أشجار كثيفة بحق وكأنها من العصر الطباشيري.. لن أندهش لو برز رأس ديناصور من بينها ليخور خوارا عميقا يرج الشارع رجا!!.. هناك أيضا بركة ماء لا أعرف مصدرها تشرب منها قطة سوداء!!.. لو كنت وحيدا لتوقف قلبي هلعا.. غريب هو الليل.. الأشياء المسالمة في ضوء النهار تتحول بقدرة قادر إلى وحوش وأشباح مخيفة ما أن يغلفها الظلام!!.. ولولا صحبة (زياد) لما جرأت أبدا على دخول بيتٍ مهجورٍ في وقت كهذا.. ولو دفعوا لي أموال العالم..

لماذا يرتبط الرعب دائما بالظلام؟!.. ربما لأن الخوف من الظلام شيء راسخ في وجدان البشرية منذ الأزل!!.. فالظلام بالنسبة لأجدادنا البدائيين يعني وقت ظهور الحيوانات المفترسة!!.. ثم توارثت الأجيال هذا الأمر.. ليظل الاعتقاد محفورا في نفوسنا وفي عقلنا الباطن رغم كل القفزات التي قطعناها في طريق المدنية والتقدم!!..

مرت هذه الخواطر في ذهني بلمح البصر ونحن نبحث عن أي شيء غير عادي في فناء البيت.. الحر الشديد والرطوبة يلتفان حولنا ليصبح الجو خانقا كريها لزجا في ظرف دقائق معدودة.. يقف (زياد) مع الأحمق الوحيد الذي قبل أن يساعده في هذه المهمة اللاداعي لها أصلا بوجهة نظري.. إنه أنا بالطبع!!.. و.. شيئا فشيئا بدأت الوساوس تعربد في أعماقي.. خاصة وأنا أرى البيت كئيبا صامتا كالقبر!!.. ولكن.. مهلا.. من قال أن القبور هادئة أو صامتة؟!.. إنها تصدر أصواتا في كل قصص الرعب.. وأنا اعتدت منذ فترة أن تكون حياتي كلها قصص رعب!!..

-استر يا رب..

قلتها بصوت هامس لم يسمعه (زياد).. اتجهنا بعدها إلى باب البيت لندخله بعد أن عجزنا عن إيجاد أي شيء ذي أهمية في الفناء.. ولكن.. باب البيت مقفل.. يظهر أنه لم يفتح منذ سنوات طويلة.. ما قصة هذا البيت؟ ؟!.. بالفعل!!.. سؤال كان يجب أن أطرحه منذ مدة طويلة!!.. قد يكون هناك تنازع ورثة سيبقى إلى يوم الدين كما هو معتاد.. ربما!!..

قررنا أن نلف حول البيت لعل الباب الخلفي مفتوح.. نمشي في الفناء المظلم دون أن نضيء مصابيح بطارياتنا كي لا يرانا أحد من أي نافذة علوية من البيوت المجاورة.. نمشي بخوف وترقب وصوت أوراق الشجر الصفراء التي تتكسر تحت أقدامنا يخيفنا كثيرا.. الباب الخلفي مغلق أيضا وبإحكام!!.. بل وجميع النوافذ موصدة ولا توحي بأن هناك من حاول فتحها.. عدا تلك النافذة!!.. نافذة يبدو أن هناك من كسر زجاجها ليدخل منها.. ولا زالت بقايا الزجاج موجودة على الأرض وجزء منها على أطراف الإطار.. نظرنا إلى بعضنا.. هناك من دخل قبل وقت ليس ببعيد.. لا شك أنه شقيق (زياد)!!.. بالطبع قررنا بدورنا الدخول.. وقلبي بدأ يخفق كالطبل.. في حين أرى (زياد) وقد كان -والحق يقال-أكثر تماسكا مني رغم أنه يصغرني بأربعة أعوام..

لست أدري ولكن.. شعورا غامضا يعتريني بأن هذا البيت يراقبني أيضا!!.. حاولت أن أتجاهل هذا الشعور وأنا أتسلق حاجز النافذة المغبر.. فشعرت ببقايا خيوط نسيج عنكبوت أتلفه من دخل قبلنا تلتصق بثيابي!!.. هذا أمر طبيعي.. بيت قديم مهجور من المؤكد أن يتناثر فيه غبار الأعوام

ونسيج العناكب!!.. رحت أسعل بخفوت وأبصق وأبعد الغبار عن ثيابي.. ليدخل بعدي (زياد).. أضئنا المصباح فزالت العتمة قليلا.. أسلط كشاف بطاريتي إلى داخل البيت لأرى قطع أثاث قديمة مهملة متناثرة هنا وهناك يغطيها الغبار.. أرى أيضاً جبلاً صغيراً من القمامة تنبعث منه رائحة كريهة للغاية.. في حين تملأ الأرض طبقة لا بأس بها من الغبار المتناثر هنا وهناك وكأنني في مقبرة فرعونية تم اكتشافها للتو!!.. خطوة إلى الداخل.. ثم خطوات استكشافية مترددة سببها الخوف طبعا.. كأننا نخضع لقواعد الدراما الإغريقية.. حيث يسير البطل بإصرار مزعج نحو قدره.. وحيث ينذره كل شيء بالمصير المحتوم لكنه لا يبالي!!..

-استر يارب!!..

قلتها مرة أخرى بهمس وأنا أسمع صوت خطوات أحذيتنا تحتك بالغبار الموجود على الأرض.. حبيبات العرق تنبت فوق رأسي وتحت إبطي وكل موضع من جسدي في لحظات قليلة.. والأمر نفسه مع (زياد).. تبا.. لا أتحمل ملمس الثياب على جلدي عندما أعرق..

هدوء مريب جدا.. مريب إلى درجة جعلتنا نتوتر.. وهذا ما يجعلني أمشي لا شعوريا على أطراف قدميّ وكأنني راقصة في بحيرة البجع وأنا ألتفت يمينا ويسارا.. إن القط المتسلل يكون عادة حزمة من الأعصاب المرهفة.. فلو إنك صحت فيه: (بخ).. لوثب في الهواء مترين!!.. كان هذا حالنا.. ولو سمعت صوتا يقول لي: ماذا تفعل هنا يا ولد؟ ؟!.. لمت ذعرا على الأرجح!!..

ثم تذكرت شيئا مهما.. فهمست بخفوت بسبب رهبة المكان:

-(زياد)؟!..

-همم..

-لماذا لم يخف شقيقك (بضاعته) في فناء البيت؟!..

قال بحنق هامس:

-هلا تكف عن ذكر كلمة (بضاعة) تلك؟!.. كأننا في فيلم عربي!!..

قلت معترضا:

-لم أذكر هذه الكلمة سوى الآن!!.. لا عليك... أجب عن السؤال من فضلك..

قال بنفاد صبر:

-لأن الشمس ستتلفها.. لا تنسَ أنها أقراص مدمجة تتأثر بحرارة الشمس.. لذا فقد وضعها داخل البيت على حد علمي.. و..

قاطعته مستغربا:

-ولكن.. ألم يكن من المفترض أن يتركها بالقرب من النافذة؟!..

رد بصوت متوتر:

-بالفعل!!.. فليس منطقيا أن يخفيها في مكان بعيد عن النافذة التي دخل منها.. كل ما عليه هو وضع أقراصه المدمجة داخل البيت قرب النافذة حتى يسهل على شريكه أخذها في أي وقت يريدا!!.

ثم نظر إلي نظرة من طراز (فلنبحث -في -أرجاء -البيت).. أومأت برأسي كناية عن الفهم.. و..

ها نحن نتسكع في منزل قديم مهجور بكل وقاحة!!.. ولو قلتها لنفسي قبل أسبوع مقسما بأغلظ الأيمان بأنني سأدخل هذا البيت لما صدقت.. جنون أليس كذلك؟!.. المثير أننا دوما نمارس الجنون دون أن نشعر للحظة أنه كذلك!!..

رحت بشعاع البطارية أمسح البيت بهدوء شديد.. لحظة.. هل تشمون هذه الرائحة مثلي؟ ؟!.. ليست رائحة القمامة.. بل رائحة عضوية لم أرتح لها تملأ الجو وتشعرني بالغثيان.. (زياد) يشمها أيضا.. أنا لا أعرف كيف تبدو رائحة العطن.. ولم أشمها في حياتي.. ربما هي رائحة العطن التي يسببها نقص التهوية!!.. نمشي بهدوء شديد للغاية وظلانا ساقطان على الحائط كأن عملاقين يراقبان ما نفعل.. وقد ضاقت عيوننا لأقصى حد من أثر الغبار والعرق.. حتى أن (زياد) قد خلع قبعته ووضعها تحت إبطه المبلل بالعرق.. جو لزج حار وعرق يتخلل مسام جلدك وأنسجة ثيابك.. بل وروحك ذاتها!!..

-توجد الكثير من الخرائب هنا..

قلت هذا لنفسي في خفوت عندما دست على بقايا مزهرية تفوقني عمراً دون شك لتتحطم بقاياها مرة أخرى.. ابتعدت عن بقايا المزهرية لأدوس على مرآة عتيقة ملقاة على الأرض وقد تساقط طلاؤها تماما.. من الصعب المشي هنا دون أن أدوس على شيء!!.. ثم إن البحث عن أي شيء وسط هذه الخرائب يشبه البحث عن عود من القش وسط كومة من القش!!!.. ولا يوجد أي خطأ في الجملة..

شعور غريب ينتابني بأنني مراقب.. كيف يشعر الإنسان أنه مراقب؟!.. ومتى تنبت له هاتان العينان في مؤخرة عنقه؟!.. إنهما موجودتان منذ الأزل لكنه لا يعرف بوجودهما.. وأحيانا يطلق عليهما اسم: الحاسة السادسة.. المشكلة أن تلك الحاسة العجيبة التي لدي أسمعها تقول لي بوضوح تام: لا تبق أكثر من هذا.. فر كأنما الجحيم يطاردك يا أحمق.. إنك تفعل -وبإصرار- كل ما تخشاه.. يجب أن ترحل.. ارحل يا أحمق!! هذا ما قاله لي الصوت الغامض في مؤخرة رأسي!!.. وكان ما قلته له هو: لكن الوضع جدا مختلف الآن.. لست وحيدا هنا كما حدث لي في السابق.. فكفاك سخفا.. إنك تجعل مني جبانا!!.. شعرت بأن النداء في مؤخرة رأسي يقول في نفاد صبر: وهل كذبت عليك من قبل؟!.. الحق أن لا!!.. ألتفت باحثا عن (زياد).. أرى ضوء بطاريته في الصالة.. بينما أنا في غرفة قريبة منه.. وهذا أعطاني نوعا من الاطمئنان.. لا أرى في الغرفة التي دخلتها سوى تمثال قديم محطم لم يبق منه سوى الرأس.. وبرغم هذا كان شكله مروعاً.. إذ يبدو لي وكأنه يرمقني بكراهية.. شعور قوي بدأ يداهمني أن هناك أحداً غيرنا في المنزل.. لقد بدأ الرعب يسيطر على عقلي.. وجعلني أغفل أمر (زياد) الذي تصرف بغباء وابتعد عني ذاهبا للبحث في غرفة أخرى.. لماذا كان تصرفه هذا ينم عن غباء؟!.. لأن هناك وبعيدا عنا.. ثمة باب مخفي لا نعرف عنه شيئا يقود إلى قبو (سرداب)!!.. ولو دققت النظر أكثر واعتدت الظلام لعرفت أن باب ذلك القبو يفتح ببطء ليسمح بمرور أحدهم.. يحدث كل هذا دون أن ندري بالطبع!!!.. أما أنا.. فلم يصل خوفي إلى درجة الهلع وفقدان العقل إلا عندما انتبهت إلى الجدران الرمادية الباردة في الغرفة التي دخلتها.. إذ توجد عليها بقعة سوداء!!.. بقعة سوداء تشبه ما يمكن أن يحدث لو أن هناك من سكب زجاجة حبر على الجدار!! ولسبب ما قرر جهاز الهلع النائم في عقلي أن يستيقظ.. وأن يعمل بقوة.. خصوصا عندما دققت النظر.. لقد تبين أن هذه البقعة السوداء ليست سوى بقايا دماء!!!.. بل أن هناك ثقوبا على الجدران عرفت بسهولة أنها آثار

رصاصات!!.. لقد حدثت مذبحة في هذا البيت وفي هذه الغرفة بالذات!!.. بدأ الفأر يلعب في عبي.. بل وبدأت الفئران كلها تعبث تحت عباءتي!!.. وفقدت حماسي تماما في مساعدة (زياد) حتى بدا لي البيت كابوسا من كوابيس قصص الرعب!!.. إنني جبان يا سادة.. جبان ولكن لن ألوم نفسي.. أي إنسان في موضعي سيخاف.. وسيخاف كثيرا.. فإذا لم أرتب في آثار دماء وجدتها في بيت مهجور كهذا بعد منتصف الليل.. فبم أرتاب إذا؟!..

الضوء يرتجف في يدي.. و:

-(زياد).. يجب أن نرحل.. لن نجد شيئا هنا..

لم أسمع رده!!!.. وانتبهت لأول مرة أنني لا أرى أي أثر لضوء بطاريته.. وقبل أن أتخذ أي رد فعل سمعت الصوت!!.. صوت ارتطام قوي جدا.. التفت مذعورا..

-(زيااااااد)!!!..

قلتها صارخا بهلع.. وقد جعل الصدى صوتي مرعبا أثار رجفة حقيقية في عروقي!!.. لن ينفع الصراخ.. خرجت من الغرفة لأذهب إلى حيث سمعت صوت الارتطام.. من اللحظة الأولى شعرت بأنني لن أحب ما سأراه.. لكنني مع هذا اقتربت أكثر وأنا أرتجف بقوة.. شعري مبتل وثيابي غارقة بالعرق.. ثم إن توتري الداخلي جعل دمائي تغلي.. و... كان (زياد) ملقىً على الأرض.. والدماء تفور من رأسه!!!.. وقبل أن أتخذ أي رد فعل... سمعت صوتا قادما من مكان ما.. تصلبت في مكاني وقد تلاشى تفكيري تماما.. سأركض في الظلام ناحية الشباك حيث دخلنا لأبتعد عن هذا الكابوس.. يجب أن أجتاز ممرا إلى صالة المنزل ومن ثم إلى النافذة التي دخلنا منها.. ولكن!!.. شيئا ما ينتظرني هناك.. كيف عرفت؟!.. بسبب ذلك الصوت!!.. صوت أنين قادم من الصالة.. ليس أنين.. بل هو عواء!!.. عواء مروع متحشرج.. حسنا إذا.. إنها واحدة من تلك اللحظات التي يفوق فيها الأدرينالين في دمك نسبة دمك نفسها!!.. وتتخلى فيها عن عقلك وتبدأ بالركض كالمسعور!!!.. ولكن إلى أين سأركض؟ ؟!.. وكيف سأركض؟!.. إن قدميَّ لم تعودا تقويان على حملي.. قبضتي تتوتر.. والرجفة في يدي الممسكة بالمصباح تلقي ظلالا مجنونة في كل صوب!!.. أطفأت البطارية حتى أختبئ من...!!.. لا أعلم سأختبئ من ماذا!!.. لكن يجب أن أختبئ.. وهنا بدأ سباق العميان.. جريت كالمجنون إلى غرفة تبين أنها حمام قديم.. واختبأت وراء الباب.. كان الظلام دامسا.. وبعد لحظات.. حين اعتادت عيناي الظلام.. استطعت تمييز أشياء شنيعة لا أعرف كنهها.. الصراصير؟ ؟!.. يا للهول.. هذه الكائنات تسبب لي هلعا ما بعده هلع.. تصلبت تماما في مكاني وأنا أتجنب الالتصاق بالحائط خلف الباب.. قد تلصق بي هذه الكائنات الشنيعة..

أذكر جيدا عندما كنت في السابعة من العمر.. حين دخل صرصور طائرا إلى غرفتي من الشباك المفتوح.. وقبل أن أتخذ أي رد فعل.. انطفأ التيار الكهربائي!!!.. عندها شعرت بأنني أريد أن تنشق الأرض وتبتلعني وبدأت أجري بهلع خارجا من غرفتي!!.. ها هو الرعب الوحشي المجنون يهاجمني هذه المرة دون أن أستطيع التعبير عنه وأنا مختبئ في مكاني خلف هذا الباب!!.. لحظات لا تنسى وذكرى قاسية أخرى ستتخذ مكانها على رفوف ذكرياتي.. هذا بالطبع إذا عشت لأتذكر!!..

كذا كنت أقول لنفسي وأنا مختبئ خلف الباب أعب الهواء في جشع من شدة الرعب كما يعب الجمل الماء بعد صيام طويل!!.. أتمنى ألا يكون صوت لهاثي عاليا إلى الحد الذي.... يا للهول!!.. صوت الحشرجة المخيف.. هذا (الشيء) يدخل الحمام.. رائحة أنفاس عطنة تقترب!!.. إنه يعلم

أنني مختبئ خلف الباب!!!!.. و.. عزيزي القارئ.. سأظل أذكر ما حييت ذلك المشهد الدرامي للظهور المفاجئ لهذا (الشيء)!!.. كائن غريب لا يبدو بشريا على الإطلاق يغطي الشعر وجهه وجسده.. وصدره يموج بحشرجة شيطانية مقيتة.. أما وجهه فمنتفخ بشكل مخيف وواضح.. وعلى الرغم من أنني عجزت عن رؤية الملامح بوضوح وسط هذا الظلام.. إلا أنني استطعت أن أرى العينين.. عينين ثاقبتين مخيفتين حمراوين كالدم!!.. والأسنان نخرة إلى حد مرعب.. أما الشعر فمنكوش ثائر مخيف مختلط بالطين والغبار!!!.. هل صوت الحشرجة مخيف فعلا بالصورة التي أصفها لكم؟!..لا أدري.. فالإيحاء يلعب دورا في هذه المواقف!!.. إن هذه الأوصاف مخيفة عندما تسمع عنها.. فماذا لو رأيتها وحدك وسط الظلام في بيت مهجور؟!.. ماذا ستفعل؟!.. ستصرخ؟؟!!.. أنا لم أصرخ.. لأن لساني انعقد تماما.. والكلمات انحشرت في حلقي.. ثم.. رفع (الشيء) يديه نحوي.. فإذا بهما أطراف تشبهان مخالب ذئب!!.. أو هذا ما بدا لي!!.. لحظة!!.. هناك بقعة سوداء في مركز الإبصار!!.. ثم العرق يصبح باردا على جبيني.. هل أنا أموت؟ !!.. على الأرجح لا.. إنني أفقد وعيي.. كنت أظن أن فقدان الوعي يحدث في الأفلام فقط!!.. أو يحدث للآخرين فقط.. لكنه بالفعل آت ولا ريب.. يجب أن أقاوم.. يجب.. أن.. أقا.. و.. و.. وساد الظلام المكان!!.

فقدت الوعي بالطبع ظانا أنني لن أستيقظ مرة أخرى!!.. لكنني كنت أفوق من آن لآخر لأدرك أن هناك من يجرني جرا على الأرض!!.. ظلام دامس يغلفني.. اليد التي تجرني مازالت مستمرة في مهمتها!!.. وبعدها يتم دفعي دفعا لأتدحرج على سلم قصير الدرجات إلى أن أصل إلى الأرض.. عندها فقط.. فقدت الوعي تماما.

عرفت فيما بعد أن الإغماءة دامت بضع دقائق.. لكنني حسبتها يوما!!.. كيف استيقظت؟!.. صوت متوتر يناديني بخفوت.. أفقت للحظات لأعرف أين أنا.. أين أنا؟!.. كم الساعة الآن؟!.. لا شيء يضايقني أكثر من اختلال ساعتي البيولوجية.. هذا يزيد من حالة الدوار لدي.. مرت لحظات قليلة دون أن أعلم أين أنا وماذا حدث لي بالضبط!!.. ولماذا يؤلمني جسدي بهذا الشكل؟ !!.. إن ذهني كالضباب لا أستطيع لملمة شتاته لأفكر أو حتى أشعر بالرعب.. ثم.. ذات الصوت المتوتر الخافت ينادي بإلحاح وسط الظلام الدامس:

-(خالد)؟!.. (خالد)؟!.. استيقظ بالله عليك!!

قالها (زياد) بعصبية أيقظتني تماما وأشعرتني بخطورة الأمر.. فغمغمت في إعياء لم يخلُ من الخوف وأنا أردد الجملة الخالدة التي يقولها كل من يفقد وعيه:

-أين أنا؟!.. ماذا حدث؟!..

رد بخوف وألم:

-لا أدري؟!.. إنني أنزف بغزارة يا (خالد).. الدماء تغمر وجهي وأكاد أن أفقد وعيي مرة أخرى!!..

قالها وهو يبكي خوفا.. لم أرد عليه.. فقد أثار هلعي شيئا آخر.. لقد انتبهت للتو أن يديَّ مقيدتان بإحكام خلف ظهري.. والأمر ذاته مع ساقيّ!!.. و(زياد) أيضا مقيد كما علمت.. لم أحاول حتى فك قيودي بعد أن جمدني الرعب..

ظللنا مقيدين في الظلام لحظات قليلة دون أن نعرف أين نحن بالضبط.. إن الظلام غير عادل.. ويجعلك في وضع واه هش.. ربما لهذا يحب رجال الاستخبارات أن يضعوا المتهم في غرفة مظلمة

ويسلطوا عليه الكشافات فلا يرى شيئا في حين يراه جميع مستجوبيه..

و.. عندما اعتادت أعيننا الظلام.. عرفت أين نحن.. إننا في القبو على الأرجح!!.. لم أكن أعلم أن منزلا كهذا يحوي قبوا.. لا شيء يوحي بهذا من الخارج.. ولكنه قبو صغير بدائي الصنع.. أصغر حجما قليلا من غرف الخدم في (الكويت).. وسقفه منخفض يكاد أن يحتك برأسي إذا وقفت!!.. وجدرانه رملية مدعومة بالأخشاب!!!.. إنه أقرب إلى حفرة كبيرة!!.. ثم.. ما هذه الرائحة الكريهة؟ ؟!.. آه.. الآن عرفت.. ففي إحدى زوايا القبو رأيت طنا من كل ما يمكن تخيله من المهملات!!.. وبقايا عظام حيوانية.. هل هي عظام قطط أو كلاب؟!.. هذا ما يبدو!!.. لا عجب من رائحة العفن الكريهة التي تتسلل إلى الخياشيم وتجعل من تنفسي عملية بطولية.. إن المكان شبيه بكهوف الدببة ومليء بالحشرات بالإضافة إلى فأر أو فئران!!!!.. إنني أخشى الفئران والصراصير لدرجة الموت.. ولكن الخوف من هذه الكائنات أصبح ترفا غير متاح لي الآن بوجود هذا (الشيء).. عيناي تتحركان في محجريهما بجنون.. لأرى بقربي كتبا ملقاة بإهمال.. وعددًا هائلًا من الصور الفوتوغرافية التي لم أستطع تمييز محتواها بسبب الظلام.. وعددًا هائلًا آخر من الأوراق المبعثرة!!.. ثمة شيء غريب مريب يدور في هذا البيت!!.. ثعابين القلق بدأت تنهش ذهني.. إن جدتي ستموت هلعا إذا جاء الفجر ولم تجدني في فراشي!!.. كيف سأشرح لها موقفي؟!.. هذا لو خرجت من هنا حيا.. أفكر بهذا والدموع تغرق وجهي من شدة الخوف.. هل هي دموع أم عرق؟!.. من الصعب أن أميز بينهما في هذا الجو القاتم.. و.. عندها فقط رأيته.. أو فلنقل.. رأيتها.. وعرفت حينها كنه (الشيء) الذي هاجمنا!!.. فتاة.. أقول إنها فتاة على سبيل الدقة التشريحية فقط.. لكنني أكثر منها رقة وفتنة ونظافة!!!.. هل أنا أحلم؟!.. قطعا لا!!.. إنها فتاة تحمل مصباحي اليدوي الذي سقط مني عندما فقدت وعيي.. لقد ساعدني ضوء المصباح على رؤيتها بشكل أفضل.. كانت ترتدي ثيابا قذرة ممزقة في أكثر من موضع ومهترئة تماما لا يمكن أن تعرف لونها الأصلي.. أما جسدها فكان نحيلا نوعا ما ولكن تبدو عليه علامات القوة والشراسة!!.. رائحة أنفاسها العطنة تلفح وجهي على الرغم من أنها لم تقترب مني بعد.. إنني واثق أنها تنفث البكتيريا مع كل زفير!!.. لقد وصفت لكم شيئا من وجهها سابقا.. لكنني سأضيف إلى هذا وأقول أنه أبشع وجه آدمي رأيته في حياتي.. حتى أن الرجل الفيل ([2]) قد يبدو وسيما إذا ما قارناه به..

وجه تملؤه تجاعيد مخيفة حول الشفتين وركني العينين الجاحظتين مع علامات واضحة لحياة خشنة جدا!!.. ذقن غير حليق.. فتاة تحمل ذقنا؟؟!!.. نعم.. لقد بدت شبيهة بالشياطين البشرية في رسوم القرون الوسطى!!!.. و.. هذا الأنف المتآكل.. أتراه الجذام؟ ؟!.. ربما.. لحسن الحظ أن حالات الجذام المشوهة هي حالات (محروقة) لم تعد معدية.. بينما الخطر كل الخطر في المريض الذي يبدو مثلي ومثلك ([3])..

كانت غاضبة كالبركان ترمقني بكراهية وهي تمسك فأرا بيدها.. لن أخبركم ما فعلته بالفأر.. تستطيعون تخمين ذلك بأنفسكم!!!! ولكنه مشهد مقزز لن أنساه مدى الحياة.. ثم.. ضحكت ضحكة شامتة حاقدة متلذذة يتطاير منها اللعاب لن تصدقها ما لم تزها!!.. الغريب أنه لم يكن لهذه الفتاة صوت.. بل كانت تئز كمحرك الثلاجة!!.. وقد لاحظت أن قدمها حافية قذرة جدا تستطيل منها الأظفار بصورة مخيفة.. اقتربت الفتاة من (زياد) الذي بدأ يتوسل إلي أن أنقذه.. و..

شرعت تتحسس ثيابه وهو يحاول التملص والابتعاد عنها!!.. إنها تخرج شيئا من بين ثيابه!!.. يبدو لي ككيس صغير من البسكويت.. راحت تلتهمه بطريقة جنونية وكأنها لم تذق طعاما كهذا

منذ سنة!!!.. فرغت من أكلها فوقعت عيناها علي!!.. شعرت بالغثيان بسبب نظرتها التي التصقت بوجهي وكأنها بصقة!!.. هذا أول إنسان أعرفه يجب أن تستحم بعد أن ينظر إليك!!!.. اقتربت مني وهي تغرس مخالبها في شعرها وتهرش رأسها.. كأنما تحاول انتزاع فروة الرأس ذاتها..

قامت بعدها بتحسس ملابسي باحثة عن شيء يؤكل على الأرجح!!.. وأنا بدوري أحاول التملص وأحبس أنفاسي بسبب هذه الرائحة المقيتة.. إنها تمسك أذني اليمنى بقوة.. آآآآآآآه.. لم أصدق أن أذني على هذا القدر من المرونة التي تسمح لها بأن تدور حول محورها ثلاث مرات دون أن تنقطع!!.. يظهر أن عدم وجود طعام معي قد أغضبها وزاد من هياجها!!

كل شيء غريب منفر وكأنني في كابوس لا يريد أن ينتهي!!!.. تركتنا لبضع دقائق.. لينطلق صوتي الباكي الغاضب وسط الظلام كالسهام الحارقة تجاه (زياد) الذي كان -مثلي-يبكي رعبا:

-أيها الأحمق.. منذ هذه اللحظة نحن مرشحان قويان لنموت.. لو سارت الأمور كما أتوقع فلن نعيش لنرى شمس الغد.. ما كان يجب أن أستمع إلى معتوه مثلك!!.. أنت مجرد خنزير وغد.. أنا لا أكره شيئا في العالم سوى أمثالك الذين يتظاهرون بالذكاء ولا يتركون الناس وشأنهم.. أنت مجرد وغد.. هل تريد رأيي فيك؟ !!.. أنت وغد.. وغد.. وغد!!.

ثم سمعته يقول بغيظ باك:

-أقسم بالله العظيم أنك لو لم تخرس حالا لنهضت وهشمت رأسك القبيح.. من يدري؟!.. لعلك تصير أجمل بعد ذلك!!.. إن رأسي ينزف والدماء تغطي وجهي أيها الحقير.. فلست بالمزاج الرائق لسماع تفاهاتك!!..

كدت أن أرد لأسمعه بأقذع ما قد يسمعه في حياته لكني صمت!!.. نحن أغبى حمارين يمكن العثور عليهما.. لا أدري كيف يعيش الحمقى مثلنا.. رغم أن كل احتمالات الحياة ضدهم..

أقول لـ(زياد) بعصبية:

-لماذا تبكي أيها اللعين؟؟!.

فيرد بعصبية مماثلة:

- من الألم أيها الأحمق.. و.. و.. من التوتر العصبي.. ليس الموقف سهلا.. وإلا فلماذا تبكي أنت أيضا؟ ؟!..

بالفعل.. لقد اختلطت دموعي بالعرق كما تعلمون.. وخوفي جعل أنفاسي لاهثة.. فلم أنتبه لبكائي!!..

عادت الفتاة.. فتجمدنا في مكاننا وصمتنا تماما ونحن ننظر إليها بذعر!!.. لمحت شيئا يتوهج قليلا في يدها في هذا الظلام.. كاد قلبي أن يتوقف رعبا بعد أن رأيت ما تحمله.. إنه سكين.. أو مبضع.. لا أدري بالضبط.. لكنها لم تكن تحمله بغرض تقشير البرتقال بالطبع!!!.. اقتربت من (زياد).. ثم قامت بكل بساطة -وقبل أن ينتبه هو نفسه- بغرس السكين في عنقه أمام عيني المذعورتين!!!.. النصل يمزق رقبته!!.. بل سمعت صوت اللحم وهو يتمزق!!.. كان هذا مروعاً.. لعل الصوت أشنع من المشهد ذاته!!.. الغريب أن (زياد) لم يصرخ!!.. ولم يرتجف!!.. ولا أعتقد أنه استشعر ذرة خوف!!.. ربما لأنه لم يتوقع هذا على الإطلاق.. وعلى كل حال.. لو صرخ (زياد) فلا أعتقد أن أحدا سيسمعه هنا.. فالقبو يبدو لي معزولا تماما يسمح بحدوث أي شيء داخله!!..

لا تسألوني عن حجم الدم الذي انفجر فجأة من عنق (زياد)!!.. هذا أمر مفروغ منه.. ولا تسألوني عن الهلع الذي شعرت به.. فهذا أمر مفروغ منه أيضا..

وفي لحظات قليلة رأيت (زياد) ساكنا مفتوح العينين ونظرة الموت الذاهلة ترمق السقف!!.. أطلقت صرخة رعب هائلة وأنا أتخيل النصل يمزق لحم عنقي أو نسيج صدري.

اقتربت الفتاة نحوي.. وقبل أن أتخذ أي رد فعل.. هوت صفعة على خدي لتفقدني صوابي حتى شعرت أنها أطارت جانب أسناني الأيسر كله.. شعرت بحنق مجنون.. الصفير لا زال في أذني عاليا من قوة الصفعة.. رحت أصرخ:

-أيتها الحقيرة؟!.. من أي بالوعة أتيت؟ !!..

لم ترد علي.. وبدا أنها لم تفهم كلامي أصلا!!.. ثم.. وضعت يدها القذرة المشعرة على فمي وشعرت بشيء بارد على وريد عنقي.. إنه السكين الذي قتلت به (زياد).. انتابتني حالة من الهستيريا.. رحت أصرخ بجنون وأتلوى.. وأحاول أن أفك قيودي.. وهي تحاول بدورها وضع السكين على رقبتي!!.. أو تحاول طعني وأنا أتملص بشراسة لم أظن أبدا أنني أملكها.. إن كل إنسان يمكنه أن يكون شرسا إذا ما وجد الدافع.. وهل هناك دافع أقوى من أن أمنع هذا (الشيء) المخيف من قتلي؟!!.

ثم.. وفي جزء من الثانية.. وفي رد فعل سريع سببه تمسكي بالحياة.. قمت برفس بطنها بركبتي.. فصرخت صرخة مخيفة شرسة.. حتى أن اللعاب تجمع أكثر فأكثر عند جانبي فمها ليصبح النظر إلى وجهها عذابا!!.. وبخوف جنوني ورغبة جنونية أكثر في التمسك بالحياة.. التحمنا بقوة وهي ممسكة بالسكين.. كانت رائحة فمها كريهة جدا لا تطاق عندما اقترب وجهها مني.. لكني لم أكن في حال يسمح بالاشمئزاز.. ورحت كالمسعور أحاول فك قيودي.. وتمكنت ذلك بالفعل.. ربما لأنها لم تقيدني بإحكام.. أو لأن الله -سبحانه وتعالى-أعطاني القوة لهذا.. عموما فإن هذه الأمور لا تقاس بالورقة والقلم.. و.. استطعت أخيرا أن آخذ منها السكين بعد صراع رهيب تبين لي من خلاله أنها قوية بحق وتقاتل بشراسة.. ولكن.. خيّل إلي للحظة أنها تبدو خائفة أكثر مني!!.. هذا لا يهمني.. إن الحالة النفسية لقاتلي لا تهمني كثيرا!!.. لا زلنا ملتحمين في صراع بدا لي غير متكافئ على الإطلاق.. شخص ضعيف واهن كحالي و(مخلوق) مخيف متوحش..

عضلاتي تتقلص.. أنفاسي تضيق من رائحتها الخانقة العفنة وقوتها البدنية.. وعروق عنقي تنفجر.. لكنني أتماسك.. شفتي السفلى تنزف من أثر أسناني.. ولا بد أن عضلات ذراعي تتمزق.. ولكن كل هذا لا يهم.. يجب أن أدافع عن نفسي.. إنها تمسك بيدي الممسكة بالسكين.. وبكل قوتي أبعدت يدها.. وقمت بعدها بأصعب عمل قد أقوم به في حياتي.. طعنتها في بطنها!!.. فانطلقت بصراخ في انفلات أعصاب تام جعلني أشعر وكأنني فجرت بركاناً بشرياً.. إذ صرخت وصرخت وهي تتألم ممسكة ببطنها.. أعتقد أن من طعن الفتاة لم يكن أنا.. بل هلعي المجنون!!.. أرى في عينيها نظرة لا أجرؤ على وصفها.. هي مزيج غريب من الغضب والحزن لن تصدقه ما لم تره.. أما أنا.. فقد دفعتها بعيدا ونهضت لألتصق بالحائط غير مصدق ما حدث.. غير مصدق ما فعلت!!..

كنت متجمدا في مكاني.. ويدي اليمنى لا زالت ممسكة بالسكين الملوثة بالدماء التي انفجرت من بطنها.. وقد تكاثف العرق المالح فوق أهداب عيني ولم تعد رئتاي قادرتان على جلب المزيد من الأكسجين لقلبي.. الدم المندفع من مضخة قلبي يضرب سقفا في رأسي.. والألم يغزو كل جسدي.. لكن لا وقت لذلك!!.. أمسح العرق بكتفي لأن يديّ ملوثتان بدمائها.. وأنظر إلى الفتاة مرة أخرى..

لا بد أن شيئا ما تحرك في أعماقها.. هل أنا أتخيل أم أنها تبكي؟ !!.. بكاءً مخيفاً وكأنه عواء.. بدت في عينيها نظرة حيرة.. عدم فهم!!.. ثم مدت يدها إلي تطلب مني إنقاذها.. وكأننا في فيلم عربي!!..

هذا منطقي لأنني أنا نفسي لا أفهم ما يحدث!!.. توقف بكاؤها بعد لحظات.. و.. توقف قلبها!!.. لم أجرؤ على الاقتراب منها بالطبع.. لقد ماتت.. وانتهى كل شيء قبل أن أفهم ما يحدث في هذا البيت الملعون!!..

وقبل أن أفكر بأي شيء آخر.. بدأت أحاول استعادة روحي التي كادت أن تخرج من جسدي من شدة الرعب.. رحت ألهث بقوة وأنا لا زلت مستندا إلى جدار القبو الرملي.. وقد اندفعت الدماء من جديد كالشلال إلى وجهي.. جو صامت كئيب ساد المكان.. كأنني استهلكت كل عواطفي في الخوف.

ماذا سأفعل في هذا المأزق الرهيب الذي وضعت نفسي فيه؟!.. نظرت إلى جثمان (زياد) بألم.. وشعرت برهبة تجاه السر الإلهي الغامض الذي يجعل هذا (اللحم) يفكر ويتحرك.. هذا السر قد ترك جسد (زياد) ورحل.. قبل لحظات كان المسكين حياً يفكر ويحلم ويحدثني ويغضب مني.. والآن صار جسده مجرد دمية فارغة!!..

فكرت في الخروج من هنا والاتصال بالشرطة!!.. لكنني ألغيت هذا الاحتمال.. سيكون لدى رجال الشرطة أسئلة كثيرة.. ماذا كنا نفعل في هذا البيت المهجور؟!.. ولماذا اقتحمناه؟!.. أسئلة لا تقف أجوبتها في صالحي أبدا.. فحتى لو ألقيت اللوم على (زياد) -رحمه الله- سأكون أنا الملام في النهاية ولن يلومه أحد.. فالموتى دائما على حق!!.. سينتهي بي المطاف بسرير مريح في سجن (طلحة) أو ربما في رعاية الأحداث.. لا أعرف ما سيقوله القانون بشأني!!..

لقد وضعت نفسي في ورطة حقيقية!!.. هل أذهب إلى البيت وأنسى الموضوع تماما؟!.. مستحيل بالطبع!!.. سيعرف رجال الشرطة كل شيء.. لا أحد يستطيع خداعهم.. ولي أن أتصور كم مليون بصمة تركت!!.. وكم مليون هوية شخصية سقطت من جيبي!!.. وكم مليون ورقة تحمل اسمي هنا.. إن المسألة لن تتجاوز بضعة أيام.. وأنا أعرف نفسي وجبني.. لا تنقصني سوى لافتة على جبيني تقول: أنا نادم يا سادة.. لقد فعلتها!!..

لا زلت جالسا في القبو شاعرا وللمرة الأولى بالإنهاك الشديد.. إن من يمشي ألف ميل لا يشعر بالتعب إلا بعد انتهاء الرحلة.. لم أعد خائفا من الظلام أو من وجود هاتين الجثتين!!.. لأن الخوف من ضياع مستقبلي وحياتي كلها لا يدع في النفس مكانا للخوف من أي شيء آخر!!.. ماذا فعلت؟!.. ماذا فعلت يا (خالد)؟!.. اغرورقت عيناي بالدموع شأن كل عاجز.. ورحت أندب حظي وأشتم نفسي وألعن غبائي.. أنا لا أفعل سوى وضع نفسي في المتاعب.. وكأنني أتقاضى راتبا من أجل هذا!!.. لقد تصرفت بغباء!!.. أكره الغباء الذي يجعل المرء يرى باباً مواربا بعد منتصف الليل ومع هذا يدخله.. إنني لا أتعلم من أخطائي أبدا.. لا أتعلم!!.. هل سمعتم عن الرجل الذي حرق أذنيه بمكواة الملابس مرتين.. أعني مرتين.. وهو يظنها سماعة هاتف؟!.. هذا ما فعلته بنفسي إذا كنتم قد قرأتم قصصي السابقة..

أنظر إلى الفتاة.. وأحدث نفسي بصوت باك:

- من أنت؟!.. ماذا تفعلين هنا؟!.. لماذا تعيشين حياة كهذه؟ !!.. كأنك قادمة من عصر الكهوف!!..

كم هو غريب أمرها.. إن هذا البيت ليس مكانا منسيا إلى هذا الحد.. فهو بالتأكيد ليس كهفا في جنوب أفريقيا.. أو مقبرة في وادي الملوك.. من العسير أن يعيش أحد فيه دون أن نعلم عنه شيئا!!.. يبدو لي أن الفتاة قد عاشت هنا فترة طويلة جدا.. لماذا لم تخرج من البيت؟!.. كيف أصبح شكلها مخيفا بهذه الصورة؟!.. لماذا تتصرف بهمجية ووحشية؟!.. ليتني أعلم!!!.

زفرت بقوة لأفرغ كل انفعالاتي.. ثم.. يجب أن أتوقف عن البكاء والنحيب وندب حظي.. يجب علي أن أفعل شيئا وأتصرف!!.. إن البكاء على اللبن المسكوب لن يفيد!!.. وهكذا بدأت أفكر.. إن أول ما علي فعله هو الخروج من هذا البيت اللعين.. لم أكن أعرف كم من الوقت قضيناه في القبو.. فكل الأوقات تتشابه في السراديب خصوصا تلك المعزولة تماما عن الخارج.. لكن أعتقد أن الوقت لا زال ليلا.. يجب أن أخرج تحت ستار الظلام وقبل زقزقة عصافير الفجر.. يجب أن أبتعد عن مسرح الجريمة التي لم أرتكبها.. أو ارتكبتها رغما عني وأجهل حتى الآن كل شيء عن أبعادها.. ولكن قبل أن أخرج.. خطر لي خاطر هام جدا!!.. لو تجاهلت كل ما حدث هنا وهربت.. لظللت أحترق بنيران الفضول طوال عمري.. فمن حقي البشري أن أعرف شيئا عن هذه الفتاة وهذا البيت بعد أن ملأت القصة عقلي وروحي بالألغاز.

نعم.. يجب أولا أن أحاول إزالة بعضا من علامات الاستفهام المتعلقة بهذه الفتاة!!.. قد يساعدني هذا في إيجاد حل للمأزق الذي وضعت نفسي فيه.. ثم تذكرت الأوراق!!.. السرداب مليء بعشرات الأوراق التي تمتلئ بدورها برسومات طفولية مع العشرات أيضاً من الصور الفوتوغرافية التي سأجد الوقت الكافي فيما بعد لأشاهدها.. وبيد باردة كالثلج من شدة الخوف.. رحت أبحث في محتويات السرداب.. وأجمع الأوراق..

أوراق.. وأوراق.. ورسومات وصور فوتوغرافية لا تنتهي.. و.. كاد أن يغمى علي فرحا حين وجدت دفتر مذكرات نسائي!!!.. سيفيدني هذا كثيرا.. كثييرا!!.. عم أبحث؟؟!!.. لا أدري.. أي شيء قد يكشف لي ما يحدث هنا.. و-بالطبع-لم أجسر على لمس الجثتين الملوثتين بالدم.. فهما ملوثتان بالموت أيضا.. وأي لمسة يمكن أن تنقل لي العدوى.. أي عدوى؟ ؟!.. لا أدري أيضا.. إنها عدوى فحسب!!.. ومن مكان ما كنت أسمع أغنية انجليزية لا أدري هل لها وجود حقا أم إنها تتردد بجنون في عقلي الباطن فقط!!!.. ما هذا الشيء المبتل؟؟!!.. آه!!.. إنها الدماء تسيل من منخري.. لماذا؟!.. ربما هي حالتي النفسية..

أصبحت الأوراق رزمة كبيرة في يدي.. حملتها بصعوبة مع دفتر المذكرات.. ثم خرجت من القبو.. ولأول مرة أنتبه إلى بابه المخفي الذي يصعب أن يجده أحد.. لم يكن الباب عاموديا.. بل أفقي!!.. وكأنه غطاء لحفرة إذا كنتم تفهمون ما أعني!!.. فهو إذا ليس قبوا بالمعنى المعروف.. بل حفرة.. حفرة كبيرة الحجم!!.. أمر غريب.. غريب بحق!!..

خرجت من نافذة المنزل التي دخلنا منها.. لأسمع صوت زقزقة العصافير التي بدأت تلقي عبارات التحية لبعضها!!.. وبدأت أشعر أخيرا بالهواء النقي البكر يتسرب إلى رئتي التي كدت أن أبصقها بعد أن امتلأت برائحة العفن!!.. إن النهار يوشك على البدء.. يظهر أنني قضيت في هذا البيت قرابة ال 3 ساعات.. 3 ساعات فقط؟!.. لقد بدت وكأنها دهر!!!.. توجهت إلى السور.. أتسلقه كالمجنون كي أصل إلى شقتي قبل أن يراني أحد.. أتسلق بحذر كي لا يسقط دفتر المذكرات والأوراق والصور والرسومات التي وضعتها تحت إبطي.. و.. هووووب.. الوثبة على الأرض خارج حدود البيت!!.. سقطت على ذراعي.. وعلى كفي المفتوحة بقوة غير عادية فتبعثرت الأوراق.. وشعرت بألم يمزق معصمي.. فيما بعد سأعرف أن يدي ستنتفخ وتنزف وتصاب برضوض!!.. كل

هذا سيحدث وسأستمتع به!!.. أما الآن فعلي الفرار.. الفرار ولا شيء سواه.. رحت أجمع الأوراق من على الأرض وكأن كل شياطين العالم تطاردني.. ثم عبرت الشارع الخالي تماما لحسن الحظ والهواء النقي يذكرني بأن هناك عالما في الخارج.. الجميع لازالوا نائمين في سرور لا يشعرون بما يحدث.. هذه مزية أن تكون أحمق!!.. جميع الناس يظنون أنهم يعرفون كل شيء وأن الجزء الأخير من أسرار العالم الذي لا يعرفونه لا يستحق المعرفة!!.. كيف لو عرفوا ما كان يحدث في هذا البيت؟!.. إنني واثق الآن أن هناك فظائع جرت على كل شبر من الأرض التي نمشي فوقها.. لكننا لا نعلم أو نتظاهر بعدم العلم..

عدت إلى البيت مغبرا غارقا في العرق.. درجة الحرارة تقترب من 40 درجة مئوية دون شك.. ومع هذا أرتجف!!.. والمرء لا يرتجف في هذا الجو إلا لو كان محموما.. أو خائفا مثلي!!..

فتحت الباب بهدوء آملا ألا أفاجأ بجدتي فتصطدم بوجهي الكالح الملوث بالغبار والعرق والخوف!!.. لحسن الحظ كانت لا تزال نائمة.. ثم.. على أطراف أصابعي تسللت إلى غرفتي.. نظرت إلى الساعة.. إنها الرابعة صباحا.. وأنا مرهق منهك.. دعك من لعابي الذي جف كزجاجة صمغ منسية!!.. أشعر أن كل ما في الكون من عصائر لن يكفي لإطفاء ظمئي وإزالة المرارة التي في حلقي.. رحت أجرع الماء كالجمل من الثلاجة الصغيرة الموجودة في غرفتي.. ثم ذهبت لأخذ حماما ساخنا جعل أعصابي تذوب تماما.. ولكن لفترة قصيرة مع الأسف.. فبعدها مباشرة بدأ التوتر يسيطر على قلبي مرة أخرى.. لقد تركت جثتين في ذلك البيت الملعون.. كيف سأخبر أهل (زياد) بموت ولدهم؟ ؟!.. كيف؟؟!!!..

ذهبت لأرقد في الفراش مستشعرا تلك اللذة التي يشعر بها كل إنسان حين يدفن قدميه الساخنتين في الأغطية الباردة.. أرمق السقف شاعرا أنني في دوامة.. إنني تائه تماما.. كم أنا وحيد في هذه الدنيا!!.. كم أنا وحيد.. ليتني أملك عائلة تحميني من هذه المصائب فأسلّم لها رقبتي بلا تردد.. ترقرقت الدموع في عيني رغما عني.. هل أسكت عن كل ما حدث؟!.. السكوت عن الأمر وتناسيه سيجعل أهل (زياد) يموتون قلقا على ولدهم.. أشعر أن هذا عمل غير أخلاقي بكل المقاييس.. لا يمكن أن أتصرف بقذارة ضد قناعاتي وأؤذي الآخرين.. كما لا يمكنني أن أبلغ الشرطة وأحطم مستقبلي!!.. إنني في ورطة لا أعرف منها فكاكا!!.. نهضت مرة أخرى واتجهت إلى شرفة غرفتي وقد بدأت الشمس تشرق.. وبالطبع بدا كل شيء مبهجا مشرقا!!.. حتى لتتساءل رغماً عنك: لماذا كنت مذعورا البارحة؟!.. نعم.. ففي شمس الصباح يبدو كل الرعب الذي عشته في ذلك البيت أمرا ضبابيا سخيفا.. لا يمكن أن يحدث شيء كريه تحت هذه الشمس الودود!!.

فكرت.. وفكرت.. لكني وجدت أن التفكير بإرهاق وبمعدة خاوية أمرا مستحيلا.. فذهبت إلى المطبخ.. وملأت معدتي بسندويتشات الجبن التي صنعتها.. ثم.. وجدت نفسي أتثاءب بقوة.. إن المعدة المليئة مع الإرهاق تلعب دور أقوى المخدرات المعروفة.. كما أن إيقاعي الحيوي في أسوأ معدلاته ولن أستطيع التفكير بذهن مكدود.. وبالفعل.. نمت!!.. نمت نوما طويلا من شدة الإرهاق الذي تغلب على القلق والخوف.. ولم أستيقظ إلا في فترة الظهيرة!!.. عندما أيقظتني جدتي الحبيبة من النوم لتناول الغداء.. قبلت جبينها كالمعتاد ونهضت للاغتسال ثم إلى الغداء محاولا أن أبدو طبيعيا.. و:

-(خالد)؟!.. هل تعلم يا ولدي أن الشرطة قد قبضت على (حمد) صباح اليوم؟!..

سألتها مستغربا:

-(حمد) من؟!..

-(حمد) ابن الجيران!!..

سألتها مصدوما:

-(حمد) شقيق (زياد)؟!..

هذا غريب.. لأول مرة أعرف أن اسمه (حمد)!!!.. إذ لم أهتم مسبقا بمعرفة اسمه!!..

سألتني جدتي بدهشة:

-هل تعرف (زياد)؟!..

قلت في ارتباك لم تلاحظه لحسن الحظ:

-ليست معرفة شخصية.. ولكن أراه في الحي أحيانا وأسمع الأولاد ينادونه باسمه!!.

لماذا كذبت؟!.. لا أعلم.. ولكن.. حافزا قويا جعلني أخفي الحقيقة عن جدتي.. ثم سألتها باهتمام واضح:

-ولماذا قبضوا عليه؟!

قالت بحزن:

-يقولون أنه يمارس نشاطا مشبوها.. تجارة بعض الممنوعات.. لقد هرب من أهله ليقيم مع أحد أصدقائه!!.. ولكن الشرطة توصلت إليه..

سألتها مشدوها:

-ولماذا فعل هذا؟!.. لماذا هرب من أهله؟!..

-تقول والدته أنه سأم هذه الحياة.. فزوجها من فئة (البدون) كما تعلم.. ووضعهم المالي ليس على ما يرام.. والولد كحال من هم في مثل سنه يحتاج إلى المال بشدة وقد يفعل أي شيء للحصول عليه.. والمصروف الذي يأخذه من والده لا يكفيه..

سكتت جدتي قليلا واستطردت بأسى:

-المشكلة أن (زياد) قد اختفى أيضا.. وأهله يبحثون عنه بهلع.. إنهم في أسوأ حال!!..

تحفزت حواسي عندما ذكرتني جدتي بما حدث لي فجر اليوم!!.. وشعرت بأن حبات الأرز قد أصبحت كالحصى في فمي!!.. وفقدت كل رغبة في الأكل!!.. فاستأذنتها وعدت إلى غرفتي والدموع بدأت تترقرق مرة أخرى في عيني.. أتوقف عن البكاء أحيانا كي أتصرف كرجل.. وأحاول أن أجد حلا لهذه الورطة.. ثم أجد نفسي عاجزا عن إيجاد أي حل وتترقرق الدموع في عيني مرة أخرى!!..

لم أخرج من غرفتي على الإطلاق سوى للعشاء.. ولم يكن السبب هو الرغبة في الأكل بقدر ما أردت أن أبدو طبيعيا أمام جدتي حتى لا ترتاب بأي تغيير في سلوكي.. لا أريد أن أسبب لها أي قلق!!!.. إن هذه القصة كفيلة بإنهاء مستقبلي تماما!!..

جلست مع جدتي لتناول العشاء وأنا في واقع الأمر أتمنى الانفراد بنفسي لأفكر في حل لهذه المصيبة.. يجب أن أخرج من هذا المأزق.. أقولها جادا هذه المرة.. فالبكاء لن يجدي.. وندب الحظ لن يؤدي إلى شيء!!.. أعتقد أنه يجب علي أولا أن أحاول كشف لغز ما حدث في ذلك

البيت!!.. نعم هذه هي الخطوة الأولى.. وأهم خطوة..

و.. أخيرا.. الساعة الحادية عشرة مساء وقد نامت جدتي.. استجمعت حطام نفسي وجلست في غرفتي.. الليل هو وقت السكون الكوني.. الوقت الذي يجد فيه العقل البشري فرصة للتفكير.. شرعت أفعل ما أفعله دائما حين أفكر.. أخرجت ورقة وقلما وبدأت بسرد بعض النقاط الهامة محاولا إيجاد حل لهذا المأزق.. وبالطبع لم أنس أهم ما في الأمر.. دفتر المذكرات.. والرسوم والصور الفوتوغرافية العديدة التي أخذتها من ذلك البيت.. رحت أولا أقرأ دفتر المذكرات الذي كتبت فيه آخر صفحة بتاريخ 1991/2/20.. كانت المذكرات تقع في حوالي مائتي صفحة.. تحكي بخط أنثوي رقيق منمنم يوميات امرأة.. هذه المذكرات ألقت الكثير من الضوء على القصة.. حتى أنني اندمجت معها تماما ونسيت مرور الزمن.. فلم أعلم أن الساعة قد دنت من الثالثة والنصف فجرا.. وأن السكون قد عم الكون بعد ما نامت الضوضاء ذاتها من فرط الإرهاق!!.

رحت بعدها أشاهد الرسوم بيد متوترة.. ثمة لمسة درامية مخيفة حول هذه القصة.. لمسة درامية تبرر تلك الرجفة في ساقي ودقات قلبي المضطربة.. هناك رسوم طفولية عديدة وبسيطة كرسم أي طفل.. لكنها معبرة جدا!!.. فبعضها مليء بالعاطفة والحب.. كأن ترى طفلة ممسكة بيد أمها وأبيها.. وبعضها دموي مخيف كأن ترى جثتين ممددتين على الأرض والدماء تفور منهما.. أو طفلة صغيرة مختبئة في دولاب وهي تذرف الدموع!!.. ورسم يمثل شخصا يحمل مسدسا يقتل به شخصا آخر.. وعشرات الرسوم غيرها.. عادة ما تكون الرسوم الطفولية التي تمثل الشر تحوي نوعا من التوتر الغريب.. والسبب هو أنك لا تتوقع أن ينبع هذا الشر من خيال طفل بريء!!!.. إلا إذا كان هذا الطفل لا يتخيل.. بل يرسم شيئا رآه بالفعل!!!.. ارتجفت لهول الفكرة!!.. رباه.. من رسم تلك الصور؟!.. هل هي تلك الفتاة الهمجية نفسها؟!.. لا أدري..

أشاهد وبدقة الصور الفوتوغرافية التي كانت لأسرة صغيرة تحوي أبا وأما.. وطفلة صغيرة رائعة الجمال في الرابعة من العمر!!.. وأغلب الصور كانت للأم.. تعرفون تلك الصور التي لا تكون إلا لموتى!!.. من العجيب أن صور الموتى تبهت وتشحب بسرعة كأنما هناك ارتباط بالفعل بين الروح والصورة كما اعتقد البدائيون!!..

لقد كشف لي دفتر المذكرات الكثير من أبعاد القصة ولغاية التاريخ الذي ذكرته لكم.. ولكن هذا ليس أهم جزء!!.. هناك فصول من هذه القصة لم تكتب بعد!!.. رحت بعدها أحاول فك رموز الصور الفوتوغرافية والرسوم الطفولية محاولا فهم معناها وخلق قصة منها!!.. أخط على ورقتي عشرات الاحتمالات المختلفة لما حدث بعد تاريخ انتهاء المذكرات!!.. طبعا تحولت الورقة إلى حشد من الخطوط المتعرجة والأسهم!!.. من أين جاءت فتاة همجية متوحشة تنتمي لحضارة ما قبل التاريخ إلى بيت في منطقة (الرميثية)؟!.. بل وإلى عالمنا أصلا؟ !!.. ما الذي يجبرها على البقاء في ذلك البيت وعدم الخروج منه؟!.. كيف توارت عن الأنظار دون أن يعرف أحد شيء عنها؟!.. طوفان هائل من الأسئلة التي تصطرع في ذهني.. وتتضارب ضربا مع بعضها!!.

ساد صمت ثقيل وأنا أشاهد الصور وأفكر.. كل شيء متعارض مليء بعبارات الاستفهام.. وتساؤلات لا تنتهي أبدا!!.. ظللت 4 أيام متواصلة منعزلا تماما عن العالم ولا أخرج من غرفتي سوى لتناول الغداء أو العشاء وقد تعللت لجدتي بأن هناك كتبا عديدة أرغب في قراءتها.. وشيئا فشيئا.. بدأت الصورة تتضح!!.. بعد أكثر من 96 ساعة من التفكير ومشاهدة الصور وكتابة الاستنتاجات التي تدحضها صورة ما.. لأعيد ترتيب استنتاجاتي كلها مرة أخرى.. ليدحضها رسم

طفولي آخر.. و..!!.. لكم أن تتخيلوا صعوبة الأمر.. لكنني فهمت أخيرا!!!.. إن الأمر يحتاج فقط إلى ترتيب معلوماتي وإلى شيء من الخيال!!.. لو أنك نجحت بترتيب كل معلوماتك لوجدت الأمور تسير بمنطقية وسلاسة..

وكما هي عادتي عندما أفهم الواقع المؤلم.. تنتصب الشعيرات على ساعدي يدي وفي مؤخرة عنقي.. ويقشعر بدني.. لأن الحقيقة غالبا ما تكون مروعة!!.. أتمنى أن أكون مخطئا.. أتمنى بحق.. عموماً هناك طريقة واحدة للتأكد من استنتاجي.. يجب أن أذهب إلى بلدية (الكويت)!!.. وبالفعل.. سارعت إلى هناك في اليوم الخامس من مغامرتي المجنونة وأنا لم أنم بعد منذ ليلة البارحة.. شاعرا بذات الإرهاق المقيت كحال من لم ينم ليلته!!.. سألت الجهة المختصة في البلدية عن مالك ذلك البيت بحجة الرغبة في شرائه!!.. و.. مع الأسف.. إن استنتاجي على الأرجح صحيح.. إنها مأساة مخيفة بحق!!!.. مأساة لا تصدق!!.. عدت إلى البيت حزينا محطما تماما.. ودخلت مسرعا إلى غرفتي حتى لا تراني جدتي.. لأنني لن أستطيع كبت دموعي أكثر من هذا.. لا أعلم كيف أخبركم بما عرفت.. لا أعلم!!.

أعتقد أنني يجب أن أتوقف هنا كي أضع بعض النقاط على الحروف.. وحتى أجعلك عزيزي القارئ تفهم ما حدث.. يجب أن أقوم بصياغة أدبية لقصة هذه الفتاة بأسلوبي أنا.. وبسردي.. وبأخطائي اللغوية.. سأحاول أن أنقل لك ما قرأته في دفتر المذكرات.. وما فهمته من هذه الصور والرسوم!!.. رحت بالفعل أخط وأسطر لكم هذه القصة ودموعي تنهمر حتى كادت أن تفسد الورق!!!.. وانغمست تماما بين السطور.. إنها لقصة غير عادية.. وإنني أفضل أن أنسحب تاركا لكم المجال كي تعيشوا أحداثها التي بدأت من دفتر المذكرات.. والذي اتضح أنه كان لوالدة تلك الفتاة الهمجية!!..

في عام 1986 وفي مستشفى (دار الشفاء).. كانت هناك أم تصرخ من الألم وهي على وشك إيصال حياتها وجزء من روحها إلى مولود جديد.. وبعد ألم رهيب لا يمكن أن تفهمه سوى الأم.. سمعت الطبيب يقول:

-مبارك يا سيدتي.. إنها طفلة رائعة..

كيف عرف الطبيب هذا؟ ؟!.. هكذا سألت الأم نفسها على الرغم من إنهاكها الشديد شأن أي امرأة ولدت للتو.. كيف يصف أي طبيب مولود جديد بالجمال ما لم يكن مجاملا؟ !!.. فكل الأطفال حديثي الولادة لهم وجوه السلاحف!!.. بشرتهم حمراء كالطماطم.. وينامون 30 ساعة في اليوم!!..

ولكن هذه الطفلة كانت رائعة بالفعل!!.. وكل من رآها قال هذا.. كان اسمها هو (يارا) اسم غريب رائع له رنين ساحر.. تعالوا معي لنرى عن قرب الأشهر والسنوات الأولى من حياة هذه الطفلة الرقيقة الجميلة كأحلام الأطفال ذاتها..

كانت (يارا) آية من آيات الجمال خلبت لب كل من رآها.. بل وازداد جمالها بشكل لافت يوما بعد يوم.. شعرها شديد النعومة حالك السواد كلون الليل.. وعيناها واسعتان رائعتا المنظر.. والأروع من كل هذا ضحكتها الرائعة التي تكشف أسنانا ناصعة البياض متراصة في فمها.. مع غمازتين قال عنهما والدها أنهما قادرتان على تغيير الكون ذاته!!.. وعلى ترويض الشياطين!!.. وكانت لها ابتسامة تنم عن حب بريء للكون كله.. طفلة لها هذه الابتسامة إنما خلقت كي تلهو مع الأرانب والغزلان كما في أفلام (ديزني) المتحركة.. ولن ألومك لو ظننتها للحظة أنها ذلك الطفل العاري ذو

الجناحين يحمل قوسا وسهاما على كتفه.. والذي يعتبر رمزا للحب!!.. شقاوتها رقيقة لا يمكن أن تغضب أحداً!!.. إلا إذا كنت تستطيع أن تغضب من قط صغير يعبث في حذائك!!!.. دعها تدخل أي قاعة مزدحمة.. تجد الجميع يتجهون نحوها لا شعوريا.. دعها تداعب أي رضيع وستجده يقرقر ضاحكا.. بينما لو داعبته أنا لانفجر في بكاء مجنون حتى يزرق لونه ويموت!!..

كانت تقضي أوقاتا طويلة في حديقة منزلها الرائعة والتي تحوي ورودا لا حصر لها.. ترى فراشة رائعة تحلق في حديقتهم في أجمل أوقات السنة في (الكويت).. أليس غريبا أنه في الطبيعة لا توجد ألوان غير متناسقة؟ ؟!.. اجعل رجلا يلبس البني مع الأزرق والأحمر والبرتقالي وسوف يغدو كالمهرج!!.. بينما الفراشة قد تحمل كل هذه الألوان وتبدو رائعة!!.. إن الطبيعة تعرف درجات الألوان الصحيحة التي تزيدها أناقة!!.. كانت (يارا) تمسك الفراشة بكفيها.. ثم تفتحهما لتطير الفراشة فرحة بالنجاة تشكر هذا الملاك على لطفه.. بينما تنظر إليها (يارا) بابتسامة رائعة وقد نسيت كل شيء عن العالم.. ولو أردنا الإنصاف فسنقول أن (يارا) هي أجمل فراشة ظهرت في حديقة منزلها.. وربما في كل حدائق العالم.. وعندما كانت السماء تمطر في فصل الشتاء.. تجد (يارا) في فناء البيت تستمتع بزخات المطر فوق رأسها.. وتفتح فمها في محاولات طفولية بريئة لابتلاع أكبر قدر ممكن من الماء وتضحك!!..

أما عندما تبكي.. فترى الدموع تنهمر بهدوء على بشرتها الرقيقة.. دون عواء كباقي الشياطين الصغار.. ليأتي والدها ويضمها إليه في حنان جارف ويسألها:

-هل لي أن أقبّل دموعك يا حبيبتي؟!

كانت أسرتها صغيرة سعيدة.. يلفها والداها بغلاف من المخمل يحميها من كل شياطين العالم إن وجدت أصلا!!.. إنها أيام الطفولة الرائعة التي زادتها هذه الأسرة السعيدة روعة.. عندما كانت (يارا) تنهض صارخة في الظلام.. فيأتي أبوها أو أمها وتجد من يعانقها ويهدئ من روعها بكلمات رقيقة هامسة ويلثم جبينها بشفتين دافئتين.. ثم يحملها لتنام بجانبه..

ما أجمل أن توجد أسرة كهذه تملأ المكان والزمان.. ما أجمل أن تكون هناك لحظة رائعة قادمة تفعمك بالأمل.. ولحظة ماضية تفعمك بالحنين!!.. إنه جو يمنح الطفل أفضل تربية ممكنة.. جو يعلمك الحب.. و(يارا) تحب الجميع بالفعل دون تحفظ.. أو ثمن!!.

كان والدها يحمل مركزا اجتماعيا مرموقا في وظيفة ما وعلى قدر لا بأس به من الثراء.. وقد كان رجلا محبوبا بحق.. طيبا بحق.. أما الأم فكانت تحمل شهادة علمية محترمة.. و(بنت ناس) كما نقول في (الكويت) لمن أحسن أهاليهم تربيتهم.. إلا أنها كانت وحيدة والديها المتوفيين.. والأمر شبيه نوعا ما مع زوجها الذي ليس له سوى شقيق ثري يعيش في (الولايات المتحدة الأمريكية)..

بلغت (يارا) الرابعة من العمر وبدأت تذهب إلى رياض الأطفال -الخاص بالطبع- فلا يمكن تربية هذا الملاك في أي مكان حكومي.. الكل يعرفها في الروضة.. الكل يحبها بجنون!!.. لتمر الأيام بسرعة شديدة كما هو الحال مع كل الأيام السعيدة!!.. وطبعا هناك القاعدة التي لم تعرفها (يارا) والتي لا يعرفها سوى المتشائمين من أمثالي!!.. وهي أن الشمس لا يمكن أن تظل مشرقة للأبد.. فدائما ما تعترضها سحابة رمادية قد تدمر حياتك!!.. ما هي السحابة الرمادية التي طغت على شمس (يارا)؟ !!.. حسنا.. فلنترك أولا هذا العالم الساحر اللطيف في فترة الثمانينات ونعود إلى أرض الواقع.. الواقع الذي لم ينتبه إليه أحد في (الكويت) أو ربما انتبهوا إليه ولم يحسنوا التصرف.. كان الواقع يقول أن لـ(الكويت) جاراً مخيفاً.. يطمع على مدى سنوات طويلة

بالتهامها.. هذا الجار هو (العراق).. والذي تنبعث منه نافورة دماء بشكل شبه دائم.. لأن تاريخ هذا البلد مليء بانقلابات.. فثورات.. فانقلابات على الثورات.. ثم ثورات تطيح بالانقلابات!!!!.. مع صراع حدودي مزمن مع (الكويت) في انتزاع قطعة من حدودها تارة.. وفي انتزاع (الكويت) كلها تارة أخرى.. حتى يكاد جنوب (الكويت) أن يتحول إلى شماله بمعجزة!!!!.. هذا بالطبع قبل تولي (صدام حسين) السلطة في (العراق).. أما بعد توليه السلطة.. فقد تحولت نافورة الدماء المنبعثة دائما من ذلك البلد إلى شلال من اللون الأحمر.. ففي بداية توليه السلطة.. لم تكن هناك سوى الإعدامات!!.. إعدامات المعارضين.. إعدامات لبعض السياسيين.. إعدامات لبعض الأصدقاء.. إعدامات لمنفذي الإعدامات!!!.. وسبب تلك الإعدامات هو....!!.. الواقع أن أحدا لا يعرف أسباب الإعدامات!!.. فهي دائما ما تصاحب الثورات في وطننا العربي الحبيب مما يدلك على أن المطلوب من الثورات ليس الإصلاح.. ولكن أن تحكم أنت!!.. كان (صدام حسين) يؤمن بالدم.. ويؤمن أن رجولة رجاله لا تنضج إلا بالحروب.. والويل كل الويل لمن يقاوم إرادته السامية.. التي هي إرادة الكون ذاته!!.. لقد فعل (صدام حسين) كل ما بوسعه ليحيل بلاده إلى بركة دماء ويستولي على خيراتها.. ويبدو أن هذا لم يشبع رغباته السادية وأطماعه.. فاتجه إلى (الكويت)!!.. وعلى الرغم من العلاقة الوطيدة بين البلدين في فترة الثمانينات كما ظن الكثيرون.. إلا أن كل سياسي غربي وكل عربي مثقف رأى في علاقة (الكويت) و(العراق) نهايتها.. والذين كتبوا عن تاريخ مساعدات (الكويت) لـ(العراق) أبقوا أقلامهم مكشوفة لكتابة الفصل الثاني من القصة.. والذي بدأ في ذلك اليوم.. يوم الثاني من أغسطس عام 1990!!.. حين استيقظ الناس صباح ذلك اليوم وإذا بالدبابات العراقية في وسط (الكويت)!!!.. لقد بدت لمن يراها من بعيد وكأنها ديناصورات عتيدة عادت إلى الحياة للتو.. وهي تزأر وتزحف على الأرض في شوارع العاصمة التي راح أسفلتها يتشقق من ثقل الجنازير!!..

راتاتاتاتا.. بوم.. راتاتاتاتا.. بوم.. طلقات من مدافع رشاشة لا تعرف مصدرها.. ورتل الدبابات يتقدم ويتقدم.. ينتظر لحظة الانقضاض في نفاد صبر حقيقي.. صرير مدافعها يدور حول محوره وكأنها بالفعل ديناصورات تدير أعناقها لالتهام الفريسة!!.. وتنفتح أبواب الجحيم!!.. قصف مستمر يدوي الآذان يجعلك عاجزا عن سماع أفكارك نفسها!!!.. حتى أن القذائف -من كثرتها- لا تجد مكانا تنفجر فيه.. والهواء نفسه يتذبذب من قوة الصوت!!.. دخان وتراب قادمان من المباني المنهارة المحترقة يزكمان الأنوف ويجعلان الرؤية متعذرة.. الشوارع تحولت إلى نيران.. والسماء أصبحت بلون حذاء الجندي العراقي أو قلبه.. لا يهم.. فكلاهما أسود!!..

المدافع تهدر مرة أخرى في كرّات متتالية من كل مكان واتجاه.. والأرض ترتج وترتج معها قلوب الناس.. وكأنك تجلس في قاعة سينما تتمتع بنظام دولبي ممتاز!!.. صف المباني الحكومية الذي طاله القصف استحال إلى كتلة من النيران ينبعث منها دخان أسود كريه الرائحة.. مبان محترقة.. وبعضها لا زال يحترق.. رائحة الموت تعبق الجو.. ماذا؟!.. عشرات الأبرياء سيموتون دون ذنب؟ ؟!.. هذا أمر مفروغ منه بالطبع.. لا وقت للقوات العراقية للتمييز.. هذه أمور تافهة لا وقت للتفكير فيها!!.. إن المقابر الجماعية ظاهرة ستنتشر في أيام الاحتلال المشؤومة!!..

في يوم واحد فقط أحال جيش (العراق) ماضي (الكويت) وحاضرها ومستقبلها إلى كومة من الغبار الساخن!!.. لقد كانت (الكويت) ترتجف ذهولا!!!.. ترتجف غضبا!!!.. ترتجف خوفا!!!.. وفي يوم الغزو الأول يخرج بعض من المدنيين الكويتيين من منازلهم.. وبوجوه تائهة غير مصدقة.. يسيرون بين جثث الجنود العراقيين الملقاة على طريق (الدائري الخامس) عند قصر (بيان)..

جثثهم لا تزال ساخنة جراء تبادل إطلاق النار مع بقايا من الحرس الوطني الكويتي.. أحد المواطنين تنتابه الحمية فيصرخ مرددا هتافات ضد (العراق) مع بعض السباب المشين بحق..

ويظهر يومها (صدام حسين) في التلفزيون مرتديا بذلة سوداء كلون قلبه.. وبصوت إجرامي عسكري مخيف يعلن أن القوات العراقية قد دخلت (الكويت) لمساعدة الضباط الكويتيين الأحرار للثورة ضد النظام الظالم في البلد!!!.. وقام بتعيين حاكم مؤقت لحكومة (الكويت) المؤقتة.. وأصبحت (الكويت) في ليلة وضحاها (جمهورية الكويت) !!.. وذلك طبعا تمهيدا لضمها إلى (العراق).. وهكذا اعتبرت (جمهورية الكويت) التي أوجدها (صدام حسين) هي أقصر جمهورية في التاريخ القديم والحديث.. حيث لم تدم أكثر من ثلاثين ساعة قبل أن يعلن رسميا أن (الكويت) هي المحافظة التاسعة عشرة لـ(العراق)!!.

أما ما حدث بعدها خلال فترة الاحتلال فوحشية لا توصف!!.. مبان حكومية سابقة لم يطلها القصف أصبحت مخصصة للتعذيب وانتزاع المعلومات من رجال المقاومة الكويتية.. وأحيانا من مدنيين لا ذنب لهم..

فترى البشر معلقين على أوتاد ينزفون.. والأسلاك تتدلى منهم.. أسلاك الكهرباء طبعا!!.. مع طرق أخرى للتعذيب كانتزاع الأظفار من الأصابع.. ومسلسل عمليات سلخ جلد رجال المقاومة.. وحرق بعضهم بالأحماض.. وتمزيق الأوصال.. حتى لتوشك الدماء أن تسيل من على الورق لتغرقنا نحن القارئين!!.. تعذيب.. تعذيب لا يتوقف وبأسلوب يستطيع أن يقنع فأرا بقتل أسدا!!.. أو يقنعك بالاعتراف بتزعم عصابة مافيا!!.. لقد كان أمرا عاديا أن ترى صفا من المدنيين الذين وقفوا بشعورهم المبعثرة وثيابهم الممزقة.. بعضهم أبرياء بالطبع.. وبعضهم قد يكون من المقاومة.. كيف يتم التمييز بينهما؟ !!.. لا وقت لهذا!!.. ثم.. راتاتاتاتا بوم!!!..

لقد كانت أيام الاحتلال خطرة مليئة بالقلاقل.. ويقال أن الرجل لو تأخر في العودة إلى منزله ساعات قليلة.. يمكن لأهله أن يعتبروه أسيرا.. أو شهيدا.. ولن يكونوا مخطئين في الغالب!!..

على كل حال فإن قصة الغزو معروفة للجميع ولا داعي للحديث عنها أكثر من هذا.. نعلم جميعا أن أهل (الكويت) سيعيشون 7 شهور سوداء.. وبعدها سيتحرر بلدهم.. وسنرى إبادة قوات التحالف للآلاف من الجنود العراقيين على طريق (المطلاع).. وكأنهم مستعمرة ذباب رشت عليها قوات التحالف مبيد حشري. ولكن.. وحتى نعرف قصة (يارا).. يجب أن نظل في فترة الاحتلال التي ستكون بمثابة المنظر الخلفي لقصتنا.. وهو كما ترون منظر غني بالعنف والقسوة.. ولا بد أيضاً أن ننتقل إلى ذلك البيت الذي تسكنه (يارا) وأسرتها.. نعم.. بالضبط!!.. إنه هو!!.. هذا البيت الكائن في منطقة (الرميثية) المقابل لشقتي..

كان والد (يارا) من المواطنين الذين آثروا البقاء في بلدهم خلال فترة الاحتلال.. بل وأصبح من رجال المقاومة الكويتية.. وأحد شهداء (الكويت) الأبرار كما سنعرف لاحقا.. وبالطبع كان يخرج أحيانا كثيرة من المنزل ليقوم بعدة عمليات ضد القوات الغازية.. كنصب الكمائن وقتلهم في نقاط التفتيش التي انتشرت في (الكويت) بتلك الفترة!!.. إذ لم يتحمل ما يفعله هؤلاء الأوغاد في بلده.. إن المرء يتحمل كافة المشاق في حياته.. ومن العسير أن تطالبه أيضا بتحمل هذه الصراصير الآدمية!!.. وبالطبع كانت (يارا) في الرابعة من عمرها لا تعي ما يدور في هذا العالم وما يحدث فيه من تغيير!!..

المشكلة أن الأمور بدأت تسوء بحق في الأيام الأخيرة من الاحتلال وأثناء حرب التحرير.. فبعد

حوالي شهر من القصف المستمر في الحرب الجوية التي شنتها قوات التحالف على الجيش العراقي.. وفي بدايات الحرب البرية لتحرير (الكويت).. كانت (يارا) جالسة في منزلها حول المائدة لتناول الغداء بوجود والديها.. لم يعلموا أن عدد غير قليل من السيارات العسكرية تتوقف في هذه اللحظة أمام منزلهم!!.. ليخرج منها عدد مخيف من الجنود العراقيين الذين يحملون أسلحة تكفي لاحتلال (موسكو) لو أرادوا!!.. وهم يركضون كالذئاب المسعورة إلى الباب.. وجوههم تحمل ملامح شيطانية تشي بأنهم جاؤوا من بالوعة الإجرام!!.

اقتحم هؤلاء المجرمين البيت فجأة وهم يريدون تدمير أي شيء أو قتل أي أحد.. يبدو أنهم عرفوا صلة الأب بالمقاومة ودوره فيها.. الجيران؟ !!.. أكثرهم نزحوا من (الكويت) ومن تبقى منهم قلة قليلة من المرجح أن أكثرها عاد إلى داره ليغلق الباب على نفسه وعلى أسرته مرددا التعاويذ عندما رأوا هذا الموكب العسكري المخيف!!.. إن الأمر لا يتعلق بالشهامة أو الشجاعة.. فلو تدخل الجيران سيتم اتهامهم بمساعدة المقاومة الكويتية.. وسيكون جزاؤهم الإعدام بالطبع.. هكذا بكل بساطة!!..

كانت (يارا) قد فرغت للتو من طعامها كحال معظم الأطفال الذين ينهون طعامهم في ثوان.. وغالبا ما يكون الطبق مليئا بالطعام لم يمس أصلا!!.. وبينما هي في الحمام تغسل يديها الصغيرتين الرقيقتين.. سمعت صراخا في صالة البيت.. وسمعت بعض الكلام الذي هو على الأرجح سباب.. لكنها لم تفهمه.. ثم جاءت والدتها بسرعة البرق ووجهها يحمل ملامح لم تفهمها (يارا) أيضا.. ودون أي كلمة.. حملت الأم ابنتها كالمجنونة وقذفتها في دولاب غرفة النوم.. ثم أخبرتها بصوت هامس قلق أن عليها أن تختبئ وألا يصدر منها صوت مهما حدث!!.. ووضعت إصبعها على فمها كناية عن الصمت والتزام الهدوء!!.. و.. أغلقت الباب على ابنتها!!.. ثوان.. ثوان بين اختباء (يارا) في الدولاب وبين عملية التمشيط التي قام بها الجنود العراقيون في كل أنحاء البيت.. حتى أن والدتها لم تجد الوقت لتخرج من الغرفة التي خبأت فيها ابنتها للتو.. ليقتحم الغرفة مجموعة من الجنود!!..

(يارا) مختبئة متكورة في الدولاب دون أن ينتبه إلى وجودها أحد.. كيف؟ !!.. إنها إرادة السماء ولا شك!!.. أصبحت هذه الطفلة كأنثى الغزال التي تفقد رائحتها عند الحمل.. وهذا يحميها من تلك الفترة الحرجة التي لا تجيد فيها الركض السريع والهرب من الحيوانات المفترسة ([4])!!..

كانت (يارا) تشاهد كل شيء من مكان اختبائها.. كل شيء!!.. بسبب تلك الفتحة الموجودة بين بابي الدولاب.. وانتبهت إلى أن جميع الوجوه التي يسمح لها مكانها برؤيتها جامدة كالصخر لا تحمل أي تعبير سوى كبرياء العسكرية وقسوتها التي لا تعبأ بآلام الآخرين..

لحظات قليلة مرت قبل أن يدخل والدها الغرفة محمولا بواسطة 4 جنود قاموا بحذفه بقوة على الأرض وهو معصوب العينين مربوط الذراعين!!.. لقد ظلت (يارا) ترمق المشهد من خلف باب الدولاب ولا تشيح بوجهها عنه لسبب واحد: الذعر جعلها لا تملك عضلات تتحرك بها.. ولا حتى عضلات تغلق بها جفنيها!!.. كانت ترى والدها ملقىً على الأرض وهو يحاول النهوض ويصرخ بالجنود العراقيين راجيا منهم ألا يمسوا أسرته الصغيرة بشيء وأن يفعلوا به ما يشاؤون!!.. مشهد مؤثر بالفعل.. يا لعاطفة الأب!!!.. لقد هوت به من عليائه وكبريائه وكرامته إلى حضيض الانهيار النفسي والمعنوي.. وكأنه يفتش عن قدم إنسان يلثمها مقابل ألا يؤذي أحد أسرته الصغيرة!!.. قرحة والدتها بدأت تصحو والآلام لا تطاق تمزقها تمزيقا.. إنه التوتر والجو العسكري المرهق للأعصاب!!.. كانت (يارا) متجمدة في مكانها.. هي لا تصدق ما يحدث.. هذا أكبر من أن يستوعبه

عقلها.. لماذا؟!.. لأنها لم تعرف أن الحياة بهذه القسوة!!.. لم تعرفها أبدا بهذه القسوة.. لكن هل هي ليست بهذه القسوة حقا؟؟!!.. وشيئا فشيئا.. وفي لحظات قليلة تعلمت (يارا) أهم وربما آخر درس في حياتها: هناك شيء في هذا العالم اسمه: شر!!.. وأنه قوة كاسحة لا يوقفها شيء.. بينما الخير يسير بين الناس وكأنه في جنازة سلحفاة!!..

تحملق غير مصدقة وهي ترى والدها يجر كالنعجة ثم يقوم هؤلاء العسكريون القساة بركله!!.. نعم يا (يارا).. إن عجائب الدنيا لا تنتهي يا حبيبتي!!.. توالوا على الأب ركلا وضربا!!.. الأم تركع وتقبل أقدام الجنود العراقيين تتوسلهم ألا يؤذوا زوجها.. لكن لا أحد يستمع إليها بالطبع.. لحظات قليلة حولوا فيها الأب إلى عجين بعد أن ركلوه ركلا بأحذيتهم الثقيلة التي جعلت عظامه تغير مواضعها داخل جسده!!.. ثم طلقة واحدة في رأسه وانتهى كل شيء.. أما الأم فراحت في هستيريا تصرخ وتولول وبدا لها أن قلبها سينخلع من جسدها من هول ما رأت.. إن النساء هن الهستيريا ذاتها.. بل أن كلمة هستيريا مشتقة أصلا من كلمة (رحم) باللاتينية ([5])!!.. ثم راحت تشتمهم وتشتم (العراق) و(صدام حسين) وحزب البعث.. وتصف أفراده بالقاذورات البشرية.. وفجأة!!.. تطير والدة (يارا) إلى الحائط لتصدمه!!.. وأنفها لا ينزف لأن أوعيته الدموية تهشمت مع عظامه!!.. لم تكن (يارا) تحسب أن كل هذا ممكن الحدوث.. لكنه حدث!!.. و.. بالطبع.. راتاتاتاتاتا بوم.. طلقات من المدفع الرشاش أنهت حياة الأم.. لتتهاوى على الأرض والدماء تنزف منها والدخان يتصاعد من جسدها وكأنها ساحرة!!..

أما جثة الأب فكانت هي الأخرى ممددة على الأرض والدماء تغادرها من كل مكان.. إن (يارا) -كحال أي طفلة- لا تفهم معنى الموت.. لذا فهي لم تفهم أبدا معنى هذه النظرة في عيني والدتها.. لكنها مخيفة لا معنى لها كنظرة أي ميت مفتوح العينين!!.. لقد ظلت (يارا) في الدولاب مع دمعة متجمدة في عينيها وهي ترى قسوة لا توصف.. ولا مبالاة تنم عن أعنف احتقار للإنسان!!.. مشهد كفيل بأن يرق له قلب (هتلر) نفسه!!.. تخيلوا فتاة سعيدة لا تعرف شيئا عن العالم سوى اللعب وقضاء أوقات المرح مع والديها ومشاهدة أفلام الكارتون.. ثم تنتزعها من هذه الجنة وتضعها في مشهد رهيب كهذا!!.. لقد أحسست بالغثيان من قسوة الأحداث التي عاشتها هذه المسكينة!!.. وإنني شخصيا أفضّل أن أقضي حياتي كلها في تنظيف المراحيض على أن يحدث لي شيء كهذا.. إن حزب البعث مرعب بحق بالنسبة لنا.. فكيف هو الحال مع الأطفال؟ !!.. كيف هو الحال مع هذه الطفلة البريئة الرقيقة التي شاهدت كل ما حدث دون استثناء؟ !!..

خرج الجنود من البيت بعد أن أخذوا -بالطبع- التلفاز والفيديو وكل جهاز إلكتروني طالته أيديهم القذرة دون أن يفتحوا الدولاب الذي اختبأت فيه (يارا).. ألم أقل لكم إنها إرادة السماء؟ !!.. وعند خروجهم.. شعرت المسكينة بكهرباء الألم تسري داخل نخاعها الشوكي كعمود من النار وهي ترى والدتها ممددة على الأرض تنظر إليها بعينين لا تريان!!.. وعندما شعرت أن الهدوء قد غلف البيت تماما.. حاولت أن تصرخ.. لكن لسانها انعقد تماما وقد علمت للمرة الأولى أنه لا يوجد من يحميها في هذا العالم!!.. إنها مجردة تماما.. واهنة تماما.. خاصة وأن الليل سيقترب والظلام سيتزايد بعد انقطاع التيار الكهربائي عن جميع مناطق (الكويت) في تلك الأيام الأخيرة من الاحتلال!!.. ضوء الشمس الخافت المتسلل من الشباك يخفت بالتدريج و(يارا) ترتجف هلعا ولا تجرؤ على الخروج من الدولاب.. لقد نالت هذه الطفلة عقدة حياتها التي ستبدل مجرى شخصيتها إلى أن تموت!!.. وبدا وكأن موتها قد صار مسألة وقت بالفعل.. إذ ظلت تجهد لتتنفس ولكن الهواء أبى أن يدخل روحها!!.. نبضات قلبها تتسارع.. وجهها شاحب كالموتى

وشفتاها علتهما الزرقة.. تريد أن تصرخ لكنها تخشى الصراخ!!.. شنيع هو الخوف الذي لا تملك حتى حق التعبير عنه!!.. إحساس مخيف جدا أن تكتشف موت لسانك عند حاجتك إلى الكلام.. وأن تكتشف جفاف عينيك عند حاجتك إلى البكاء.. و.. بدأت ساعة الحائط الموجودة في صالة البيت تتك بذلك الصوت العالي...

تيك.. تاك.. تيك.. تاك.. تيك.. تاك...

حتى ارتفعت آخر دقاتها:

-دوووووووووووم....

إنه الليل والظلام.. و.. الخوف!!.. تتمنى لو تأخذها والدتها وتحتضنها بقوة ثم تحملها إلى فراشها كما كان يحدث في الماضي القريب.. لكن ليس من حقها أن تفكر بشيء كهذا الآن!!.. هذا ترف لم يعد متاحا لها.. تتذكر الأيام السابقة المفعمة بالحنان وصوت أمها الهامس ووالدها الحنون!!.. و(كويت) الأمان والحب.. وأيام العيد!!.. واللعب في فناء البيت عند تلك الشجرة!!.. كلها ذكريات تبدو بعيدة غريبة حين تجد الفتاة نفسها في ظرف كهذا.. لقد قضت المسكينة ليلتها مختبئة متكورة في الدولاب تنظر إلى جثمان والديها!!.. تخيلوا هذا!!!..

وفي فجر اليوم الثاني شعرت أنها ستموت جوعا.. وأن مفاصلها الصغيرة قد تصلبت تماما!!.. فتغلبت غريزة البقاء على الخوف.. وخرجت من الدولاب وهي تنتفض جوعا!! تنتفض إرهاقا!!.. عيناها منتفختان كضرع بقرة حلوب لأنها لم تكف عن البكاء الصامت!!..

اتجهت (يارا) إلى الثلاجة وفي عينيها نظرة شاردة لا يمكنك أن تصدقها ما لم ترها.. لحسن الحظ أن الطقس في تلك الفترة كان شديد البرودة.. فلم يتلف شيء من الطعام بسبب انقطاع التيار الكهربائي وعدم درايتها -بطبيعة الحال-بتشغيل مولد الكهرباء كما كان يفعل والدها كل ليلة.. فكل بيوت أهالي (الكويت) الذين صمدوا أيام الاحتلال كانت تضاء بمولدات الكهرباء الصغيرة.. خصوصا في الأيام الأخيرة من حرب التحرير!!..

قامت المسكينة بالتهام بعض ما وجدته في الثلاجة كالمسعورة.. ودموعها تنهمر دون توقف حتى لتشعر أن كل دمعة تذيب شريانا من قلبك!!.. لم تبدُ جميلة كما كانت.. فقد غزا وجهها ذلك التعبير المرير الكئيب الذي يغزو وجه من تعرض لأسوأ كوابيسه وعاش أقسى الخبرات في سن مبكرة!!.. أليس غريبا أن يتغير شكل الإنسان في بضع ساعات؟!.. لقد ذبحوها ذبحا دون أن يعرفوا بوجودها!!.. وهي الآن في ورطة لا فكاك منها.. ورطة يندر أن يقع بها إنسان!!!.. من سينقذها؟!.. والداها؟!.. تعرف أنهما نائمان نوما أبديا.. غريزتها وفطرتها أخبراها بذلك.. أقاربها؟!.. تعرف أنهم قليلين جدا ولم تر أياً منهم في حياتها.. إنما تسمع عنهم من والدتها فقط.. بصريح العبارة.. لا يوجد من ينقذها من هذه المأساة.. إنها كارثة.. كيف ستبقى في البيت بوجود الجثمانين.. خاصة عندما يحل الليل؟!.. إن هذا مخيف.. مخيف بحق!!!..

إلا أنها في النهاية فضلت البقاء في البيت.. لأنه أقل خطرا بالنسبة إليها من الوحوش البشرية الذين جاؤوا من الخارج!!.. دعك من أن والديها -رحمهما الله-لم يتوقفا عن تحذيرها من الخروج.. لأن القوات العراقية في الأيام الأخيرة من حرب التحرير كانت كريمة جدا في اعتقال المواطنين وأخذهم للأسر من كل مكان بحجج واهية ومضحكة.. بل أنهم اعتقلوا مواطنا في الشارع بحجة عدم ارتدائه حزام الأمان ([6])!!!.. حتى تحولت (الكويت) في تلك الأيام إلى دولة أشباح خلت شوارعها وطرقاتها من المارة تماما.. ماذا ستفعل إذا؟!.. حتى البقاء في البيت ليس آمنا.. إنها

تخشى أن يعود هؤلاء الوحوش مرة أخرى في أي وقت ويجدونها!!.. ولكن.. مهلا!!.. إنها تتذكر شيئا!!.. هناك مخبأ لا بأس به على الإطلاق.. قبو بدائي الصنع بحجم غرفة صغيرة -وقد وصفته لكم سابقا-صنعه والدها مع مجموعة من أصدقائه.. وذلك لوضع كمية ضخمة من الأسلحة التي كان يخفيها من أجل تزويد المقاومة بها.. إن القبو خال الآن.. وهو مكان يبدو رائعا للاختباء!!.. لأن بابه مخفي من الصعب جدا أن تلحظه ما لم تفتش عنه جيدا كما أخبرتكم سابقا!!.. إنه يقع تحت السلم المؤدي إلى سطح البيت!!.. وقد كان والدها يحرص على ألا ترى ابنته ذلك القبو.. ولكنها رأته!!.. فمن الصعب إخفاؤه عن شخص يعيش داخل البيت ويحفظ كل شبرٍ فيه.. حتى لو كان طفلا!!.. إنها تفعل -بالصدفة-ما فعله جميع الأهالي الذين بقوا على أرض (الكويت) حين اختبؤوا في سراديب خوفا من أن يطولهم القصف.. لكن (يارا) لا تحتمي من القصف لأنها لا تعرف ما هو أصلا!!.. بل من هؤلاء الجنود الذين قد يأتون مرة أخرى إلى بيتها.. ستختبئ في القبو بعد أن تأخذ معها كمية كبيرة من الأطعمة والمعلبات التي يجب أن تتعلم كيف تفتحها.. والتي ستكفيها لفترة لا بأس بها!!.. وهكذا ظلت وحيدة في القبو أياما تقتات فيها من الأطعمة التي جلبتها لنفسها.. ترى كم ستدوم هذه المصيبة؟ !!.. وإلى متى ستصبر؟!.. إن الصبر في كل الأحوال ثقيل على الكبار.. فكيف هو مع طفلة في عمرها.. وبوجود جثماني والديها في نفس البيت والدماء في كل مكان حولهما؟!.. لنا أن نتخيل!!!..

كانت صامتة شاردة لم تنطق بكلمة واحدة منذ شهدت مذبحة والديها.. مع نظرات قلقة مذعورة والتفاتات مسترِيبة إلى ما وراء الكتفين.. لو شاهدها أحد لبدا واثقا أنها فقدت عقلها تقريبا!!.. بهذه السهولة والبساطة تحولت أحلى سنوات عمرها إلى أتعس وأظلم فترة تمر بها.. إنها تذكر كل الرضوض التي رأتها في جسد والدها.. وتذكر جيدا نظرة والدتها الثابتة الخالية من الحياة!!.. وما زاد حالها سوءا هو سماعها لبعض الأصوات المبهمة في البيت أكثر من مرة!!.. يبدو أن الأوغاد يعودون مرة أخرى لينهبوا الأثاث.. فالواقع الذي لا تعرفه (يارا) أن اقتحام البيوت ونهبها أكثر من مرة كان أمرا معتادا أيام الاحتلال العراقي.. هناك من نهبوا الأجهزة الكهربائية.. وهناك من جاؤوا بعدهم لنهب الأثاث.. ليأتي بعدهم من يسرق السجاد وأجهزة التكييف.. إلخ.. لذا فعودة هؤلاء المجرمين إلى البيت مرة أخرى محتملة.. وتبقى المخاطرة شديدة أن تخرج من القبو.. لكنها مع هذا كانت تخرج مضطرة ليلا إلى الصالة أو فناء البيت لبضع ساعات.. وإلا اختنقت بسبب الهواء الفاسد في أجواء القبو المغلقة.. تخرج من القبو لتجد البيت وقد خلا تقريبا من كل شيء.. حتى من جثماني والديها!!!.. لقد نهب الأوغاد البيت نهبا وربما أخذوا الجثمانين معهم لاحقا!!.. هذا ما قالته لنفسها!!.. لتعود مرة أخرى خائفة مرتجفة إلى مخبئها!!.

ولكن.. بعد أيام.. بدأت الأطعمة تقل.. وبعضها تغير طعمه وشكله دون أن يفهم عقلها الصغير السبب.. لكننا نعلم طبعا أن الأطعمة تعفنت مع مرور الوقت!!.. والباقي يكفي لإبقائها حية لفترة لا بأس بها مع صيام شديد!!.. تتمنى الخروج من البيت.. لكنها تخشى ذلك إلى درجة الموت.. فعقلها الصغير صور لها وجود جنود الاحتلال في كل ركن خارج أسوار هذا البيت.. لم تكن تعلم أن هذه عقدة جديدة بدأت تولد بداخلها.. وهي عقدة (الأكروفوبيا) ([7]).. تخيلوا فتاة صغيرة في مثل عمرها تعيش وحيدة دون أي صحبة في هذا البيت المخيف.. أيام رهيبة بحق.. و.. شيئا فشيئا بدأ عقلها المحدود يعتاد حياة الوحدة.. ولا ننسى أن عينيها قد اعتادتا الظلام تماما.. فأصبحت تعيشه طوال الوقت وترى جيدا فيه.. في حين أصبح نور النهار يؤذي عينيها كثيرا.. ولم يعد أمامها سوى الورق والقلم.. لذا شرعت تقضي وقتها في القبو بالرسم.. ترسم.. وترسم عما يعتمل في خاطرها.. وما يحدث لها.. رسوم أتعبتني كثيرا في تفسيرها..

وبدأ التبدل يطرأ على (يارا) وعلى حالها يوما بعد يوم.. فالمخاط يسيل من أنفها.. وشعرها تحول إلى ليفة تصلح لتنظيف الأطباق!!.. هل أنت مشمئز من هذه الرائحة؟!.. لا عليك.. إنها لم تبدل ثيابها منذ زمن.. ويبدو أن البق والقمل ستصبح كائنات صديقة لها.. أما الاستحمام فهو أمر نسته (يارا) تماما.. المشكلة أن مخزونها من الطعام والماء نفد تماما مع مرور الأيام.. فلم تجد شيئا تأكله أو تشربه حتى مع صيامها الشديد..

لقد بكت كثيرا بعد أن كادت تموت جوعا.. وبدأت ترفض الحياة وتفكر بالموت.. راودتها أفكار عديدة لتقتل نفسها بالفعل.. لكن غريزة البقاء كانت أقوى.. إن الإنسان -حتى لو فقد عقله-يدرك بفطرته أن الانتحار أمر غير مقبول!!.. ستعيش على أي شيء.. و.. شيئا فشيئا بعد أن قتلها الجوع والعطش.. وأصبح الجسد الذي تعيش فيه لا يكاد يحيا.. بدأت تشرب البول!!!.. وتأكل الفئران والصراصير التي بدأت تتكاثر في البيت والقبو على وجه الخصوص!!!.. وعندما تخرج ليلا إلى الفناء.. كانت تأكل أوراق الشجر الصفراء في الحديقة.. و.. و.. تصطاد القطط لتأكلها وتشرب دماءها!!!.. تصوروا هذا!!.. لهذا وجدت عظام قطط في القبو..

لا أعرف حقا كيف يستطيع الإنسان أن يفعل هذا!!.. لكن من الواضح أن عذاب الجوع والظمأ يفوق أي اشمئزاز.. من الغريب حقا أن تتصور ما يصل إليه الإنسان من قدرة على التكيف.. لقد تغلب الاشمئزاز على الحياة.. والتاريخ مليء بحوادث شبيهة بالفعل ([8])..

لقد انفجر الإطار الأمامي لروح (يارا).. وعجلة القيادة (عقلها) غير مؤهلة لتولي أي عمل.. حتى باتت الحقيقة واضحة: هذه الفتاة فقدت عقلها تماما بعدما أحرقت كل طاقاتها في سن مبكرة جدا.. وبالطبع لم تعد لها غمازتان.. لأنهما تلاشتا تحت القذارة التي حولتها إلى وحش كاسر يخيف الناظرين.. وأصبحت تعيش يومها وحيدة بعد أن سيطرت عليها عقدة (الأكروفوبيا)..

تحاول أن تضحك!!.. فتجد الضحكة تخرج متحشرجة أشبه بالفحيح!!.. حتى القدرة على الضحك أصبحت من ذكريات الماضي!!.. لسانها أخرسته الأيام ووجهها جمدته الأهوال!!.. وعقلها أسقمته حياة الوحدة!!.. وقد لاحظت مع مرور الأيام أنها بالكاد أصبحت تتلفظ بالحروف!!.. بل ولاحظت أيضا شيئا يشبه الخدوش في جسدها.. خدوشا على البطن والذراعين والقدمين!!.. خدوشا تؤلم كالخدوش.. وتبدو كالخدوش.. بحق السماء!!.. إنها خدوش فعلا!!.. المشكلة أن هذه الخدوش تظهر تلقائيا على جسدها.. ولا يمكننا أن نزعم أن فهدا يداعبها بمخالبه أثناء نومها مثلا!!!.. هي لا تعلم بالطبع أن هذه الجروح ذاتية (Self Inflicted).. إنها عادة التمزيق الذاتي (Automutilation) التي تمارسها بعض الفتيات.. فهن يخدشن أنفسهن ويمزقن جلودهن دون أن يعرفن ذلك.. وهذا تنفيس عن توتر طال أمده.. وما تعيشه (يارا) أسوأ بكثير من التوتر!!.. كيف عرفت أنا أن الخدوش قد سببتها هي لنفسها؟ !!.. إن اتجاه الخدوش -حيث يتجمع الجلد- هو للخارج وليس للداخل.. ولا يمكن لأحد عمل خدوش كهذه لنفسه ([9])!!.. كما إن الأمراض الجلدية باتت واضحة جدا على وجهها.. لقد ميزت بنفسي نحو 3 إصابات فطرية.. هذا في الظلام فقط.. ولو سطع النور لاستطعت أن أجد 10 أمراض أخرى.. بالإضافة إلى تطورات بيولوجية مجهولة شوهت وجهها كثيرا بسبب البيئة الغريبة التي تعيشها والأطعمة التي تتناولها!!.

إنها لا ترى غير الجدران ولا تسمع غير صوت الصمت!!.. وتنام في نهاية اليوم منهكة مفتوحة الفم وقد أصبح لها شخيرا يصم الآذان.. تشعر بالأشياء المروعة تزحف على جسدها.. الفئران؟!..

الصراصير؟!.. ربما!!.. لكنها لم تعد تكترث إطلاقا بعد أن بدأت تقتات من هذه الكائنات!!.. استنزاف نفسي جسدي لا ينتهي.. وهي تعيش خارج خارطة الوجود الإنساني في عالم نسى كلمات (الدفء).. و(الشمس).. و(الزهور).. وعلى صوت الرعد والأمطار التي لم تكف عن الهطول كانت (يارا) تقبع في القبو.. وفي صيف (الكويت) اللاهب حين تصل درجة الحرارة إلى 50 درجة مئوية كانت تقبع بالقبو.. إنها تتحول يوما بعد يوم إلى مسخ مخيف.. والسجن يضيق عليها يوما بعد يوم.. و...

عزيزي القارئ.. لا بد أنك قد لاحظت وجود ثغرة زمنية واضحة في القصة.. ففترة الحرب البرية لتحرير الكويت لم تدم سوى أياما معدودة لتسمح بكل هذا التغيير وهذا العذاب الذي عاشته (يارا).. لكني خمنت الحقيقة كما لابد وأنك قد خمنتها أيضا.. نعم.. من العسير على طفلة في عمر (يارا) أن تقيس الزمن.. فالطفل يجهل ما هي الدقيقة وما هي الساعة وما هو اليوم!!!.. لقد كانت (يارا) البائسة تظن أننا لا نزال نعيش في فترة الاحتلال العراقي وحرب التحرير!!!!!!.. لا زالت تظن أن القوات العراقية تجوب شوارع (الكويت).. على الرغم من مرور 12 عاما على انتهاء كل هذا.. مفاجأة رهيبة بحق.. 12 عاما تفصل هذه المسكينة عن العالم الحقيقي!!.. وعن الواقع!!.

كانت (يارا) تجهل تماما ما يجري في العالم الخارجي!!.. لهذا ذهبت إلى بلدية (الكويت) للسؤال عن مالك البيت بحجة رغبتي في شرائه.. فقط لأعرف لماذا هو مهجور هكذا.. وقد علمت منهم أن البيت مجرد إكسسوار زائد في حياة الوريث الوحيد.. عم (يارا).. الذي يقيم في (الولايات المتحدة الأمريكية) وترك البيت على حاله.. والأمر شبيه بما حدث مع البيت الشهير في منطقة (السالمية) الذي تحاك حوله قصص الجن.. والذي ظل مهجورا عقودا من الزمن قبل أن يفكر الورثة ببيعه ([10]).. ولا أعتقد أن عمها يعلم أن ابنة أخيه كانت تعيش وحيدة في هذا البيت طوال تلك السنوات.. من المرجح أنه ظنها في قائمة المفقودين.. كحال عدد من أبناء (الكويت) الذين لا نعرف عن مصيرهم شيئا منذ انتهاء الاحتلال!!.. خاصة وأنه لم يدخل البيت منذ حدوث المذبحة.. بل ولم يأت إلى (الكويت) أصلا كما علمت..

إن هذه القصة لهي مأساة حقيقية.. فقد ماتت هذه الفتاة قبل أن تموت بمدة طويلة.. ولا يوجد أي خطأ مطبعي في هذه العبارة.. على عيني غشاوة متجمدة من الدموع وأنا أتذكر بقايا الدماء التي رأيتها على جدران المنزل.. إنها بقايا المذبحة التي حدثت قبل تحرير الكويت بيومين أو ثلاثة!!.. لقد ماتت (يارا) ميتة شنيعة يشيب لهولها الولدان.. لأنها أول إنسان أعرفه يموت منذ 12 عاما!!.. لم تكن المسكينة سوى طفلة.. طفلة تختبئ في سرداب طوال 12 عاما بعد أن رأت مقتل والديها!!.. ثم جاءت غريزة الجوع!!.. فهي -مع غريزة الحفاظ على الحياة-شريكان لا يجتمعان إلا على شر!!..

لهذا كانت تبحث عن الطعام في جيوبنا.. لهذا التهمت البسكويت الذي وجدته في جيب (زياد) -رحمه الله-بجنون!!.. بل وقتلت (زياد) وكادت أن تقتلني لأننا أتينا من العالم الخارجي بالنسبة لها.. ربما تظننا من الأوغاد الذين قتلوا والديها ودمروا حياتها.. وربما كانت تريدنا طعاما لها.. أرتجف لمجرد تخيل هذا!!.

هذه هي استنتاجاتي بعد 4 أيام متواصلة من مشاهدة الرسوم والصور القديمة والكثير من أوراق العائلة!!!!.. هل أنا واثق منها؟!.. لا أدري.. لكنني بنيت استنتاجاتي على المعطيات التي لدي.. هذه القصة تشبه كثيرا تلك الحادثة الشهيرة التي جرت في بداية السبعينيات.. عندما تم العثور على 5 جنود يابانيين مختبئين منذ الحرب العالمية الثانية في غابات (الملايو).. اختبؤوا في

الأحراش ربع قرن كي لا يؤسروا أو يقتلوا.. ولم يسمع أحد منهم أن (هتلر) قد انتحر وأن اليابان استسلمت ([11])!!!..

لقد انتهت هذه القصة.. لكنني لست فخورا.. لست فخورا على الإطلاق بدوري فيها.. فأنا مثخنا بالجراح.. الجراح النفسية طبعا.. وليتها كانت جسدية.. إن الأخيرة تبرأ على كل حال.. لقد بلغت حضيض الانهيار النفسي!!!.. فقد كان ما حدث لي هذه المرة بالذات شيئا يفوق قدرتي على الاحتمال.. بل ولا زلت أرتجف لفكرة أن في هذا البيت كانت هناك حياة تحاول الاستمرار طوال تلك السنوات دون أن يعلم أحد.. بل أنني قتلت نفسا بريئة!!.. تصوروا (خالد) الضعيف الهزيل الخائف دائما يقتل!!.. إن من يقتل لا يعود أبدا كما كان!!.. حتى لو قتل دفاعا عن النفس!!.. يا لها من عطلة صيفية!!.. إنها تحتاج إلى عطلة أخرى كي أنسى جروحي النفسية!!.. كنت أنفجر باكيا من الغيظ والحنق بين حين وآخر.. متوقعا في كل مرة أن يطرق رجال الشرطة باب شقتنا!!.. لكن لشدة الغرابة لم يحدث شيء حتى الآن!!.. (زياد)؟!.. اتصلت بأهله من هاتف عمومي في مكالمة لم تستغرق أكثر من 10 ثوان حتى لا يتعقبها أحد.. وهو ما تعلمته في السينما!!.. وكل ما أخبرتهم به أن ولدهم جثة هامدة في ذلك البيت.. وبالطبع حضرت الشرطة والإسعاف واخرجوا جثة (زياد).. ولا شك أنهم قد شعروا بالذعر عندما وجدوا جثة أخرى قذرة مشوهة للغاية غريبة المنظر لفتاة مجهولة..

ولا شك أنهم لم يجدوا أي تفسير لها.. وقد أشارت بعض الصحف لاحقا بخبر صغير مبهم إلى العثور على الجثتين.. ما أهون الموت حين يكون مجرد خبر في جريدة!!.. لقد ماتت (يارا) وماتت معها القصة.. القصة التي لم يعرفها في هذا العالم سواي على الأرجح.. أما جثة والديها فربما استخرجها الجيران وقد اختبأت منهم في القبو ظنا منها أنهم من قوات الاحتلال!!..

و.. لن أطيل عليكم في وصف أوجاع أهل (زياد).. لأنني كنت منشغلا في معالجة أوجاعي أنا التي يبدو أنها لن تبرأ.. كنت منهارا تماما حتى بدوت للناس وكأن عمري قد ازداد 10 أعوام دفعة واحدة!!.. أتعلل لجدتي بأنني مريض ومرهق.. وأفكر في دراستي وأفكر في مستقبلي وأن صحتي ليست على ما يرام وأنني مصاب بالبرد.

رميت بعدها أوراق المذكرات في سلة قمامة في منطقة بعيدة عن البيت تحسبا أن يجدها أحد.. لأنفرد بعدها بنفسي في غرفتي باكيا حزينا أضرب أشخاصا وهميين!!.. أشتم العالم!!.. أشتم الجهل!!.. أشتم المجرمين.. أشتم حزب البعث!!.. أضرب رأسي في الحائط!!.. ولا يبعدني عن الانتحار والابتعاد عن هذا العالم المجنون سوى خوفي من الله..

حقا إنني أعيش في زمن أسود.. الكلمة الطيبة لا تجد من يسمعها.. الجبهة الصافية تفضح الخيانة.. والذي ما زال يضحك.. لم يسمع بعد بالنبأ الرهيب.. أي زمن هذا؟ !!.. مقولة رائعة للشاعر الألماني (برتولت بريخت).. مقولة تعكس ما يدور في داخلي من ألم وإحباط..

ثم أهدأ قليلا وأذكر نفسي أن علي أن أكون أقوى وأستعد لحياتي الجديدة.. قد تتحسن الأمور!!.. أكذب على نفسي وأقول: قد تتحسن!!.. أقنع نفسي بأنني سأكون مشغولا في دراستي ولن أضع نفسي في متاعب أخرى وسأنسى ما حدث!!.. أحاول أن أقنع نفسي بذلك دون أن أعلم أنني سأنسى بالفعل ما حدث لي في هذه القصة الغريبة عندما مررت بتجربة غريبة أخرى تتحدث عن ظاهرة غير مألوفة.. كيف؟!.. اقرؤوا القصة التالية وستعرفون.

الظاهرة!!

عزيزي القارئ.. إن الحياة مواقف ومواقف.. منها ما يغرس كالوتد في قلبك.. ومنها ما يكون كذبابة حطت على أنفك فنهرتها بيدك ثم نسيت الأمر برمته!!.. والقصة السابقة كانت كالوتد الحاد المدبب الذي انغرس في قلبي!!.. فالجو العام لها كان مطابقا لأجواء الكوابيس بشكل مفزع.. لقد تبين لي أننا نعيش في عالم أسود مظلم لا أعتقد أنه سيضيء يوما.. عالم مليء بالمجرمين والقتلة والنصابين والكاذبين.. والمصيبة أن كل إنسان في هذا العالم يحاول أن يقنعنا بأنه ليس بذلك السوء!!.. المراهق الفاسد يتحدث عن أبيه الذي لا يقضي معه وقتا كافيا ولا يستمع إلى مشاكله.. الراقصة ترى أن الرقص عمل والعمل شرف!!.. المختلس يتحدث عن حاجته لإطعام أطفاله!!.

يقولون أن المرض الوحيد الذي يصحو فيه المريض مرهقا بعد نوم تسع ساعات كاملة هو الاكتئاب!!.. كل الأمراض الأخرى -بما فيها الدرن والسرطان- يصحو مريضها من النوم أفضل حالا!!.. وهذا ما كنت أشعر به.. الاكتئاب.. والاكتئاب بطبعه يغري بالكلام.. فكل القصائد والقصص يكتبها أشخاص مكتئبون أرادوا أن يتقاسموا تعاستهم مع الآخرين.. حيث يمسكوا القلم ليكتبوا: كم نحن تعساء في هذا العالم القاسي.. لا أحد يفهمنا.. نحن نواقيس تدق في عالم النسيان.. أما السعادة فلا أحد يكتب عنها.. بل نعيشها في جشع ولا نشارك فيها أحدا!!..

لا تلوموني على هذا الاكتئاب!!.. فقلبي يحترق بعد ما حدث لتلك الفتاة المسكينة.. قلبي يحترق حقيقة لا مجازا.. ولو قرّبوا النار نفسها من قلبي لأحرقها!!.. هل سمعتم عن قلب أحرق النار؟؟!!.. إنه قلبي أنا!!.

إن الكارثة الحقيقية أن يواجه المرء كل ما واجهته أنا ويظل محتفظا بإنسانيته وذاته وخوفه الخاص.. هذا ما يجعل ذكرياتي قاسية علي فعلا!!.. بل وهذا ما يجعلني أحاول أن أستكين إلى عالمي الخيالي.. وأتمنى أن أتمكن من خدش ذاتي لأرى براءة الطفولة التي ضاعت تحت صدأ الأهوال التي رأيتها.. وأبحث عن روحي التي ضاعت ولم تعد إلي.. وعن كياني الذي لم يعد ينتمي إلي.. و.. لنكتفي بالاكتئاب والحزن.. ونتحدث عن الأهم.. فأنا أكره أن يقضي الإنسان حياته في وصف أوجاعه وأنواع الطعام التي تسبب له الإسهال وتلك التي تسبب له الانتفاخ لذا فلن أطيل عليكم بوصف أوجاعي أكثر من ذلك.. ولنتحدث عن قصتي الجديدة.. نعم.. هناك بالطبع قصة جديدة.. فكل ما أصبح يحدث في حياتي مذهل!!.. لدرجة أنني بدأت أندهش لو حدث لي أمر عادي!!.. إنني في ملاحقتي للغرائب شبيه بالنشال الذي لا يتوب أبدا مهما أمسكت به الشرطة ومهما تلقى على قفاه من صفعات!!.. وعلى الرغم من أنني وضعت قيودا كثيرة حول نفسي للابتعاد عن المتاعب.. وأقسمت ألا أفعل هذا أو ذاك.. وألا أوقع نفسي بأي ورطة من أي نوع.. إلا أنني مع كل أسف (عبقري غبي) ولا يوجد خطأ مطبعي في هذا المصطلح!!.. كيف؟!.. سأتفنن في الذهاب إلى المشاكل حتى أقع في كارثة لم أفكر فيها قط!!..

كان من المفترض أن تكون فترة الصيف لالتقاط الأنفاس وتحديد توجهاتي المستقبلية في الحياة كما أراها لنفسي.. فالإجازات فرص رائعة بالفعل تغتنم من الزمن لمحاسبة النفس وتذكيرها بمآلها وتقصيرها وفتورها.. المشكلة أن ما حدث لي في ذلك البيت جعلني أحتاج إلى عطلة أخرى!!.. وقد ظللت حوالي أسبوع كما أخبرتكم بعد قصتي الأخيرة متوقعا أن يطرق رجال الشرطة الباب في أي

لحظة.. ولكن شيئا لم يحدث!!.. مما جعلني أتمكن أخيرا من إغلاق هذا الملف من حياتي إلى الأبد ووضعه فوق أحد رفوف ذكرياتي كي يغطيه الغبار وخيوط العنكبوت.. إن حشد التجارب التي لا تنسى في مخزن ذاكرتي قد تزايد إلى حد أنني لا أجد مكانا للنوم!!..

لم يحدث لي أي جديد في بقية الإجازة الصيفية التي تلت قصتي الأخيرة سوى أنني -وتخيلوا هذا- اشتريت سيارة جديدة.. بالطبع.. إنه الوقت المناسب لشرائها.. خصوصا وأنني قد أكملت سن الثامنة عشرة منذ شهور قليلة وسأصبح طالبا في كلية الطب.. ما نوع السيارة؟!.. إنها جديدة وهذا يكفيني.. ولا أنسى أن أخبركم بأنني اشتريت أيضا هاتفا نقالا.. سأكون بعيدا عن البيت أحيانا كثيرة أثناء ذهابي إلى الكلية.. فقد تحتاجني جدتي الحبيبة.. لقد أصبح الهاتف النقال الآن ضروريا.. لم أكن أحب أن أمتلك واحدا في وقت لم أكن أحتاجه فيه.. أعرف أن هذا غريبا لشاب كويتي في مثل عمري.. لكنه الواقع.. ما حاجتي إلى الهاتف النقال وأنا لم أكن أخرج من البيت تقريبا؟!.

و.. بدأت الدراسة في كلية الطب.. لتمر الأيام بسرعة لا تصدق.. فها نحن الآن في عطلة رأس السنة الميلادية التي تسبق إجازة الربيع وقد مضت 4 شهور على بدء الدراسة!!.. ولا ننسى بالطبع أهم ما يميز (الكويت) في هذه الفترة من السنة.. فكل (الكويت) عبارة عن ثلاجة كبرى في فصل الشتاء.. إلا أنني أعترف أن فصل الشتاء له سحر خاص لا يفهمه سوى أمثالي من عشاق الوحدة الذين لا يحبون الزحام.. ففيه أجد نفسي وأجد روحي تنساب مني لكي ترتاح في خلوتها!!..

كنت في يوم عطلة رأس السنة الميلادية مصابا بالبرد.. ممددا فوق فراشي وبجواري المدفأة وشراب الليمون.. وفوقي عدد غير عادي من البطانيات.. لكني -على الرغم من هذا- كنت أرتجف.. والدموع تكاد تثب من عيني لأنه ما من إنسان يعبأ بي أو يقول لي كل عام وأنت بخير!!.. مجرد ليلة أخرى وعام آخر.. جلست أرشف شراب الليمون عطر الرائحة شاعرا به يغسل أعصابي.. كانت ليلة هادئة.. خاصة بعد أن أوت جدتي إلى الفراش مبكرا كعادتها.. ولحقت بها الخادمة بعد ساعة تقريبا.. إن جدتي هي من يعطي البيت معنى (بيت).. فلولاها لتحول المكان إلى شقة عازب!!..

وظللت أفكر.. هل أخرج اليوم على الرغم من مرضي؟!.. لا أعتقد أنها فكرة جيدة.. هل أبقى في البيت أشاهد قناة الأفلام؟!.. أو أقرأ الكتاب الجديد الذي اشتريته منذ أسبوع؟!..

بعد تفكير وجدت أنه ليس هناك أفضل من أن أكتب مذكراتي خلال الشهور الأربعة الماضية مع سرد قصتي الجديدة بأحداثها الغريبة التي عشتها قبل حوالي شهر.. وبالتحديد في بدايات شهر ديسمبر من عام 2004..

إنها قصة مثيرة بحق.. غريبة بحق.. مرعبة؟ ؟!.. هذا مستحيل بالطبع.. فليس كل من يتحرك في الردهة ليلا شبح امرأة عجوز.. وليس كل من يمشي بين القبور ليلا جنّي.. فلنقل أن قصتي القادمة غير عادية!!.. وهذا هو الطابع المميز لقصصي.. فهي تريك غير العادي في عالم عادي تماما.. يطلقون على هذا النوع من القصص مصطلح (unicorn in the garden).. أو (وحيد القرن في الحديقة).. هناك العادي في عالم غير عادي كقصص (أليس في بلاد العجائب).. وهناك غير العادي في عالم غير عادي مثل الفيلم الشهير (سيد الخواتم).. أما العادي في عالم عادي فهو ما يحدث في مسلسلاتنا العربية.. أي أنه بكل بساطة.. نحن!!..

الوقت المناسب لقراءة القصة؟ ؟!.. ليلا بالطبع كما جرت العادة.. أرجوكم لا تقرؤوا قصصي إلا ليلا.. فليكن هذا اتفاقا غير مكتوب بيننا كي لا أصدع رؤوسكم بتكرار النصيحة..

طبعا احتجت إلى وقت ليس بالقصير كي أستعيد إيقاع حياتي واندماجي في الدراسة بعد التوقف في فترة الصيف وبعد قصتي الكابوسية الأخيرة.. كنت كمحرك سيارة نام في مرآب بارد عاما كاملا والآن يحاولون إدارته مرة أخرى!!.. لتبدأ بعدها حياتي الدراسية وتمضي شيئاً فشيئا بذلك الانتظام المعهود لكل طالب.. اليوم مثل أمس.. وبشيء من الحظ يمكن أن يكون غدا مثل اليوم..

كنت طوال فترة الدراسة أذكر نفسي أن من لم تكن له بداية محرقة لن تكون له نهاية مشرقة.. وكلية الطب شاقة ومحرقة فعلا!!.. يجب أن تكون هذه حقيقة واضحة لكل من ينوي الالتحاق بها!!..

كنت أظن أنني سأكون أسعد إنسان في العالم عندما ألتحق بهذه الكلية.. ولكن.. لا أدري لماذا لا أشعر بالسعادة الآن!!.. لماذا يبدو الحلم دائما أجمل من الحقيقة؟!.. لماذا تفقد الأحلام إثارتها حين تتحقق؟!.. ربما لأننا أنزلنا الحلم حين تحقق من (عالمه) هو إلى (عالمنا) نحن!!..

إن حياتي على كل حال تتحرك الآن على محورين جادين للغاية.. المحور الأول هو بناء شخصيتي.. أحاول أن أتخلص من كل عيوبي وأن أكون أقوى في مواجهة العالم.. لا أريد أن أكون ككل الأشخاص العاديين.. لا أريد أن أكون مجرد شخص آخر.. والمحور الثاني هو الدراسة بدون كلل أو ملل.. فلست أبدا ممن يغلقون المنبه أكثر من 5 مرات عندما يعيدون ضبطه في كل مرة قبل الاستيقاظ من النوم.. فتتحول مواعيدهم بقدرة قادر من الثامنة إلى العاشرة!!..

أستيقظ بنشاط في كل يوم والهدف أمام عيني.. أتجه إلى سيارتي بعد أن ألقي التحية على شوارع (الرميثية) الحبيبة.. نعم.. فشوارع (الرميثية) ليست جمادا!!.. إنها أكثر حياة مني أنا.. ما لا أستطيع فهمه هو: لماذا كانت الدنيا متسعة في الماضي عندما كنا صغارا ثم ضاقت؟!.. فحتى الشوارع بدأت تضيق وستكف شيئا فشيئا عن الترحيب بنا.. ربما لأننا صرنا أضخم مما تتسع له!!.. حقا أننا مساجين محكوم علينا بالحياة!!.

أخرج بعد هذا إلى طريق (الفحيحيل) السريع للذهاب إلى الكلية ولا ننسى بالطبع زحام الشوارع في النهار الذي يبدو لي شبيها ببيت زجاجي مليء بالعقارب!!.. أو أي تشبيه آخر يروق لكم!!.. ثم أصل أخيرا إلى كلية الطب بعد أن أمر ببنايات متداعية متهالكة لو تركناها سنة أخرى لسقطت وحدها!!..

كنت في بداية العام الدراسي في كلية الطب محاولا أن أكون ذلك الطالب المتفوق المثالي الذي يلفت انتباه الجميع بتفوقه.. وكنت أراقب الناس بفضول كمن يراقب نوعا غريبا من البكتيريا تحت المجهر!!.. لا انفعالات ولا عواطف من أي نوع.. وأعيش في مستنقعي الميتافيزيقي الذي يتداخل مع واقع حياتي بشكل لا يمكن وصفه!!.. لكنني مع هذا أحاول أن أندمج مع المعزوفة الكونية الرائعة بالغة التناسق التي لا يسمعها أحد.. وأقول لنفسي: من يبالي بتفاهاتهم الصغيرة.. بينما المادة المظلمة والثقوب السوداء والسدم الكونية تعزف ملحمتها العظمى في هذا الكون اللامتناهي؟ !!.. سوف يملأ هؤلاء الناس الدنيا صخبا وتلوثا ثم نمضي جميعا ويأتي من يأتي بعدنا!!..

أما الحديث عن الدراسة في الكلية فهو مصيبة.. أشعر أن كل دكتور يكاد يقول لك: مهمتنا تعقيدك وإشعارك بأن الحمار أفضل منك!!.. والأسوأ من كل هذا أن ترى أستاذ المادة من الطراز الذي يرى أن الطالب المتفوق لم يخلق بعد!!.. وإذا وجد فلابد أن يسحق!!.. اختبارات عسيرة تجعلني أتساءل: ما هو حال الطالب العادي وما فرصه في النجاح في اختبارات كهذه؟؟!!!.. طبعا

تحدث بعض الإغماءات الأنثوية خلال الامتحانات.. في حين يفقد البعض أعصابهم ويبدؤون بالتذمر والتأفف.. أما العقلاء فينتظرون حتى ينتصف الوقت ويغادروا القاعة وهم يرسمون على وجوههم تعبيراً من طراز (فليكن -ليحدث -ما -يحدث).. أما أوراق الإجابات فإما أن تكون خالية من الإجابات.. أو -وفي أفضل الأحوال-تحوي إجابات عجيبة لا علاقة لها بالمادة التي ندرسها.. هكذا كانت الحياة في الكلية.. لم تكن الجنة التي أحلم بها!!.

في صباح ذلك اليوم.. أذكر أنه كان في بدايات شهر نوفمبر.. علمنا أن هناك محاضرة عن تأثير البيئة على صحة الإنسان.. يلقيها بعض الدكاترة المختصين بشؤون البيئة.. وكان الحضور إلزاميا.. يحدث هذا كثيرا في الجامعة.. أحيانا يكون الحضور اختياريا لزيادة الدرجات وأحيانا أخرى يكون إلزاميا.. كانت محاضرة مملة جدا.. وكانت القاعة مظلمة ما عدا ضوء جهاز الكمبيوتر الساقط على الشاشة المكبرة.. والدكتور المتحدث الغارق نصف وجهه في الظلام يتكلم بصوت رتيب لا تغيير فيه ولا تبديل!!.. قضيت وقتا من أسوأ أوقات حياتي.. حيث فقدت الإحساس بظهري وأطرافي وتحولت أردافي إلى جزء من المقعد!!.. وغبت لا شعوريا في نعاس عميق من الطراز الذي تسقط فيه الذقن على الصدر حتى صرت في عالم الأساطير!!.. هأنذا أقف وسط الكون وحيدا.. بينما صوت الدكتور المحاضر من كوكب الأرض يتحدث عن تأثير غازات المصانع على الإنسان!!.

-أي سؤال؟ !!..

نطق الدكتور المحاضر بتلك العبارة فجأة ودون سابق إنذار.. فرفع البعض أيديهم وسألوه أسئلة متعلقة بالبيئة ليجيب عليها بحماس.. ثم.. قال الجملة التي كنت أخشاها:

-نحن بحاجة إلى متطوع من الطلبة لينزل ويخبرنا عن العلاقة بين البيئة والطب وعما فهمه من تلك المحاضرة!!..

تشاغل جميع الطلبة بأربطة أحذيتهم وقد شعر كل جالس بأنه لو رفع عينيه فلن يفلت من الاختيار.. دائما ما يتكرر هذا المشهد.. وبالطبع أوقعت قلمي تحت المقعد ثم نزلت لأبحث عنه عازما ألا أجده قبل ربع ساعة على الأقل!!..

بكل تأكيد لم يتطوع أحد.. فاضطر المحاضر أن يختار بنفسه أحد الطلبة.. وطلب منه الوقوف والتحدث عن رأيه في هذه القضية!!.. ابتلع ذلك الطالب ريقه في صعوبة شديدة!!.. وشعرت بأنه يتمنى لو يصيب (الكويت) زلزال في هذه اللحظة حتى يهرب من هذا المأزق.. ولكن لحسن حظنا وسوء حظه.. لم تحدث أي زلازل.. إنني أعرف هذا الطالب.. ليست معرفة شخصية طبعا.. إنه زميل لي في بعض المحاضرات فحسب..

بدأ الطالب يتحدث فقال كلاما مضحكا لا يقوله من هم أصغر منه بعشر سنوات.. كلام لا علاقة له بالمحاضرة تقريبا.. وقد استغرب المحاضر في البداية وظن أن الطالب يسخر منه.. ثم تدارك نفسه.. وقال في حدة:

- طالب في كلية الطب ولا يفهم أي علاقة بين البيئة والطب.. حتى بعد تلك المحاضرة الطويلة؟!.. إن هذا لا يدخل في نطاق الجهل.. بل يدخل في نطاق الجريمة.. يجب أن نبلغ الشرطة!!..

قالها بعصبية شديدة!!.. ماذا حدث للطالب؟ ؟!.. أراد أن تنشق الأرض وتبتلعه.. هذا ما شعرنا

به ونحن ننظر إليه بإشفاق.. وبالطبع.. لملم شتاته وخرج من القاعة مسرعا وهو يمسك كتبه بيديه.. دقائق مرت بعد هذا الموقف.. كنت أشعر وقتها بحاجة ملحة إلى الذهاب للحمام.. وشيئا فشيئا احتشد العرق البارد على جبيني.. أفكر بأنهار البول التي ستسيل مني لتخفف آلامي وتروي القاعة كلها!!.. أنظر إلى باب القاعة وقد وضعت عليه كلمة النجاة exit مضيئة باللون الأخضر تعدني بالخلاص من هذا الجحيم.. فتوكلت على الله وانسحبت بهدوء شديد متجنبا النظر إلى المحاضر!!.

لقد شربت كوبين من عصير البرتقال قبل المحاضرة.. وشربت بعدها كوبا من الماء.. ثم تدخل جهاز التكييف البارد في القاعة ليجعل الأمر لا يطاق!!.. فتحت باب القاعة وخرجت مسرعا.. و.. كانت هذه واحدة من لحظات التعارف المقدسة!!!.. لأنني اصطدمت بشخص ما فسقطت منه مجموعة من الكتب كان يحملها.. فانحنى يجمعها.. وكان من المستحيل ألا أساعده.. انحنيت بمثانة ممتلئة تكاد أن تنفجر.. وقمت بلملمة بعض ما وقع منه.. شكرني بتهذيب.. ثم تبين أنني أعرفه.. إنه ذلك الطالب ذو الإجابة الغبية التي أغضبت الدكتور في المحاضرة!!.. لا أدري كيف أصفه لكم.. فلنقل أنه نحيل متوسط القامة يرتدي نظارات ويرجع شعره إلى الوراء.. ملامحه بريئة نوعا ما وتبعث على الراحة.. وكان ممن يحلقون شواربهم.. فبدا وجهه لامعا براقا وكأنه قطعة من الرخام تم مسحها للتو!!..

عرفت أن اسمه (جاسم).. وبعد أن تم التعارف بشكل سريـع.. نظرت إلى ساعتي.. لألمح له بأنني على عجالة.. واستأذنته محرجا للذهاب للحمام!!..

فيما بعد التقيت ب(جاسم) أكثر من مرة سواء في الحرم الجامعي أو في بعض المحاضرات.. فكنا نتبادل التحية بهز الرأس أو بكلمات عابرة.. وكما هو الحال في كل تجاربي تقريبا.. لم يبدأ الأمر إلا عندما جاءني يطلب مني الأمر المعتاد.. مساعدته في الدراسة!!.

-خالد.. الامتحانات على الأبواب.. أحتاج مساعدتك.. هل نستطيع أن نستذكر دروسنا معا؟!.. فأنا -وأصارحك القول-ضائع تماما.. أرجوك..

قلت له بصراحتي المحببة:

-هذا واضح.. حتى أنني أتساءل عن سبب التحاقك بكلية الطب.. واضح أنها لا تناسب ميولك أبدا..

خرجت منه تنهيدة حارة وهو يقول:

-ليت الأمر بيدي!!..

نظرت له مستغربا!!.. لكنه قال فجأة محاولا تغيير الموضوع:

-هل تمانع بمساعدتي؟!.. سأكون ممتنا..

ماذا سأقول له؟!.. حككت رأسي مفكرا وأنا أتمنى أن أجد سبيلا للفرار.. ثم.. قررت أنه ليس هناك أفضل من صراحتي المحببة مرة أخرى.. فقلت له بأدب:

-لا أحسبك ستحقق الكثير.. ولو سمحت لي بالكلام!!.. يجب أن تقوم بتغيير تخصصك.. من دون استذكار أنت راسب.. بالاستذكار العنيف ستحقق أدنى درجات النجاح!!.

بهت للحظة من كلامي الصريح.. ثم هز رأسه آسفا:

-قد تكون محقا.. ولكن.. فلنقل إنني أتمسك بأمل أخير..

لم أرفض بالطبع.. خاصة وأنني (الأمل الأخير) كما يقول.. فها هو يحفظ رقم هاتفي النقال في هاتفه.. ووعدته بزيارة في نهاية الأسبوع للبدء بالاستذكار العنيف.. وقد طلبت منه الحزم مع نفسه.. مع التحذير بأنني لن أضيع وقتي معه إذا اعتذر أو تهرب حتى لمرة واحدة!!..

وجاء الموعد الأول في يوم الأربعاء.. كان بيته في منطقة (بيان).. لا أعرف كيف أصفه لكم.. لأنه من الطراز المبهر الذي ينسيك التفاصيل!!.. وعلى كل حال نحن لم نأت لشرائه.. فلا داعي للإطالة في الوصف!!..

خرج (جاسم) من باب الصالون مرتديا بيجامة.. فصافحني بحرارة وقبلني كما هي عادتنا في وطننا العربي الحبيب:

- أشكرك على قدومك يا (خالد).. أعرف أن هناك أمورا أهم بالنسبة لك من الجلوس معي ومساعدتي في الدراسة..

أومأت برأسي مبتسما أن لا داعي للشكر.. ودخلت معه إلى ديوانية البيت.. وإذا بمفاجأة لم أتوقعها.. صورة جدارية عملاقة للأب..

قلت له وعلامات المفاجأة على وجهي:

-إذا أنت ابن الممثل الكبير (....)..

كم وددت أن أخبركم باسم الممثل.. لكن المعذرة.. فقد وعدته ألا أذكر اسمه أبدا في هذه القصة وأن يظل الأمر سرا بيننا.. فأرجوكم تقبلوا اعتذاري.. ولن أصف الأب لكم بالطبع لأنكم ستعرفونه بكل تأكيد!!.

فوجئت بالأب جالسا في ناحية أخرى من الديوانية.. لم أنتبه لوجوده حين دخلت!!.. كان يلبس الروب القصير اللامع الذي يذكرك بالأوغاد الأثرياء في الأفلام العربية -أعني من يمثلون دور الأوغاد طبعا-الذين يحتسون الخمر ويخدعون الفتيات البريئات طوال الوقت.. له صوت خشن صارم يعطيك انطباعا بأنه مليء بالحكمة.. والأغرب من ذلك ملامحه الصارمة التي لا تعرف المزاح!!.. وكان هذا غريبا بالفعل.. فهو ممثل كوميدي من الطراز الأول!!..

ألقيت عليه التحية بأدب وأخبرته بأنني من أشد معجبيه (حقيقة).. فألقى تحية مماثلة ببرود دون أن يقول الكثير حتى بدا لي ثقيل الظل إلى حد لا يوصف!!.. خرج بعدها من الديوانية دون أن يلتفت إلي وكأنني قطعة أثاث قديمة اعتاد وجودها في بيته!!..

شعرت بإحراج شديد.. واحمر وجهي كعرف الديك.. لكنني تمالكت نفسي وجلست مع (جاسم) و.. بدأت معه الدراسة والشرح.. كان شاحب الوجه يتظاهر بالإصغاء لكنه في واقع الأمر حائر شارد في زمان ومكان آخرين.. حتى شعرت بأنني كمن يشرح معنى اللون الأزرق لإنسان كفيف!!.. و..

-(جاسم).. لا تبدو لي مهتما.. ما الأمر؟!.

رد قائلا باستسلام:

-أصدقك القول يا (خالد) بأنني ألجأ إليك في محاولة أخيرة يائسة.. إنني أملك يقينا واحدا: لا مستقبل لي في هذه الكلية.. أنا أكره كلية الطب وقد أرغمني والدي إرغاما على الالتحاق بها..

-إذا ماذا تريد أن تكون؟!

قال بفخر:

-أريد أن أكون ممثلا.. كوالدي..

لم أتوقع هذه الإجابة إطلاقا.. فقلت له بابتسامة مندهشة:

-ولكن.. تريد أن تترك كلية الطب لتصبح ممثلا؟!.. هذه مصيبة!!!!

قطب حاجبيه.. وكأن كلامي لم يعجبه!!.. ثم:

-خالد.. إنني أكره دراسة الطب وهي لا تناسب ميولي واهتماماتي إطلاقا.. وأنا لم ألجأ إليك إلا بعد أن أمرني أبي بأن أطلب المساعدة من طالب متفوق.. المشكلة أنني وحتى في حالة رسوبي.. لن يسمح لي أبي بالالتحاق في المعهد العالي للفنون المسرحية.. فهو لا يرغب أن أدخل هذا المجال أبدا لأسباب يرفض مناقشتي بها..

وعند الحديث عن والده.. خرجت منه تنهيدة حارة.. وكأنه أصاب نفسه بسهم مسموم.. فقال مهموما:

-هل ستصدقني لو قلت لك بأنني لم أر والدي يبتسم من قبل؟!.. حتى ظننت في طفولتي أن الرجال لا يبتسمون لولا أن خالي كان يلعب معي ويضحك عندما يزورنا!!.. إن أبي دائما مقطب الجبين غليظ الأسلوب شديد اللهجة في التخاطب.. عنيفا.. إنه كتلة من كل ما كرهته في حياتي.. قد أصدمك إذا اعترفت لك أنني أكره والدي!!.. ولكنها الحقيقة!!.. كيف لي أن أحبه؟!.. هل ستتصور بأنني سأحبه لمجرد أنه يحتل تلك المكانة التي لا شأن لي بها؟!.. فالحب أمر يأتي من أعماق القلب ومن المستحيل أن يفرضه أحد.. بل أنني واثق أن أخوتي لا يحبونه!!.. ولحسن حظهم أن لكل منهم حياته المستقلة!!..

سألته عن علاقته بوالدته وإخوته.. فأنا لم ألتق بهم من قبل:

-والدتي متوفاة منذ زمن.. ولدي 3 شقيقات متزوجات يقمن مع أزواجهن.. وشقيق واحد أعزب يدرس في (الولايات المتحدة الأمريكية).. وعلى كل حال فإن إخوتي قد عانوا الأمرّين مع صرامة والدي أيضا..

ثم سألني بأسى محاولا تغيير الموضوع:

-ألا تفضل قضاء وقت فراغك بعمل شيء مسل بدلا من قضاء الوقت معي للدراسة؟!..

هززت رأسي في أسف قائلا:

-إنني -وهذا يثير ذعري- فقدت القدرة على الاستمتاع بالحياة.. أجمل لحظة في اليوم بالنسبة لي هي نهايته.. يبدو أن كان لدي جهاز استقبال خلقه الله لي.. جهاز استقبال لمتع الحياة.. وهذا الجهاز قد فسد تماما من هول ما عشته في حياتي وما رأيت..

سألني في حيرة بسبب هذا التشاؤم:

-ما هي الأهوال التي قد يراها شخص مثلك؟!

انتبهت إلى أنني تحدثت أكثر من اللازم فقلت متداركا مبتسما بحرج:

-إنها أمور عائلية لا مجال لذكرها..

مط شفتيه علامة الاستغراب.. وقبل أن يسترسل في الحديث طلبت منه بلطف العودة إلى الدراسة!!.

لمدة شهر تقريبا.. كنت أزوره دوريا مرتين في الأسبوع.. نجلس في غرفته أحيانا.. وأحيانا أخرى في ديوانية البيت.. ولم يكن ينغص علينا شيء سوى والده الممثل الكبير الذي يملك لهجة آمرة كحال عدد كبير من آباء الجيل القديم!!.. كان أبا سيئا بحق إلى درجة تثير الغيظ!!.. فعندما يراني أشرح لابنه الدروس يمتعض من تخلف ابنه الدراسي ويتهمه باتهامات لا حصر لها.. وأنه لن يكون أبدا الرجل الذي يتمناه!!.. بل أن نقاشا حادا جرى بينهما ذات مرة أمام عيني حول نفس الموضوع.. ليثور والد (جاسم) ويغضب كخرتيت لدغته ذبابة في جفنه.. حتى إن احمرار وجهه قد تكفل بإثارة الهلع في قلبي.. إنه من النوع (حار الدماغ) الذي يتشاجر أولا ثم يعرف لماذا هو غاضب!!..

وينتهي الأمر كما يحدث في الأفلام العربية.. صفعة قوية مركّزة تذيب كرامة (جاسم) تماما.. لا أعرف من هو العبقري الذي ابتكر الصفع؟!.. من هو العبقري الذي عرف أن مركز كرامة الإنسان يقع تشريحيا تحت الخد؟!.. بحيث تشكل الصفعة ضربة مركزة إلى كرامة المرء..

كانت الدموع تملأ وجه (جاسم) وهو ينظر إلى والده بقهر!!.. والأب يصرخ كالمجنون وهو يلهث من شدة الغضب بعد أن صفع ولده.. ويقول له بقسوة:

-إنك إنسان غير مؤهل لتكون طبيبا أو حتى غسال سيارات.. أنت غارق في عالمك الخيالي ليلا نهارا.. فلم يعد لديك متسع لشيء.. ولا تصلح لتكون رجلا تواجه العالم الحقيقي عندما تكبر!!..

من الواضح أن الأب فاقد الثقة تماما بولده.. وأعتقد أن (جاسم) لو قال لأبيه: صباح الخير..

لفتح الأب النافذة ليتيقن ما إذا كان الوقت صباحا فعلا أم ليلا!!..

شعرت حينها أن (جاسم) محطم تماما خاضع لسيطرة والده.. وبدا لي مجردا تماما أيضا بعد أن رسب أمامي في امتحان الكرامة.. وقد التهم الحرج وجهي في ذلك اليوم بالفعل.. حتى أنني آثرت الصمت دون أن أجرؤ على النظر في وجه أي منهما!!..

لقد كانت جدتي الحبيبة دائما متحضرة في خصامها معي وحتى في عقابها على الرغم من أنها غير متعلمة وبالكاد تستطيع قراءة اسمها.. فكانت -أطال الله في عمرها-تفضل الإيلام النفسي عن الإيذاء الجسدي عندما أخطئ.

جدتي الحبيبة.. لم أقض معها وقتا كافيا منذ بدء الدراسة.. سيكون هذا أول ما أفعله بعد الاختبارات!!..

لقد عرفت تقريبا تفاصيل ما يحدث في هذه الأسرة.. (جاسم) يريد أن يكون ممثلا!!.. فهو يعشق التمثيل إلى حد الهوس.. بينما يرى الأب أن الفن لا مستقبل من ورائه.. ولا يريد لولده أن يحذو حذوه.. بل يريده أن يدرس في كلية الطب حتى أنه فرض على ولده تخصصا علميا في المرحلة الثانوية.. وامتثل الولد لرغبة أبيه وحقق النسبة الدنيا للقبول في كلية الطب.. أي أنه التحق بالكلية بصعوبة بالغة.. ولم يستطع بعدها مواصلة الطريق.. فقد انتبه (جاسم) إلى حقيقة مروعة لم ينتبه لها في البداية!!.. وهي أن الكلية التي يلتحق بها الإنسان كالزوجة!!.. تكون معك بقية حياتك!!.. ولا أحد يحتفظ بفتاة يكرهها إكراما لأحد آخر.. أليس كذلك؟!..

المشكلة أن (جاسم) -وعلى الرغم من صعوبة موقفه الدراسي-لم يرسب بعد.. إلا أن الأب يؤمن بمنطق جحا الغريب عندما صفع ابنه لينذره من إضاعة كيس النقود!!.. وكانت حجته في ذلك أنه لن يجني شيئا من صفع ابنه بعد إضاعة الكيس!!.. أما الآن فإن الصفعة ستؤلمه إلى حد أنه سيبذل جهده كي يتلافى صفعة أخرى!!!.. أقول هذا على الرغم من أنني أعلم أن (جاسم) لن يجتاز الاختبارات وسيرسب.. بل وأثق تماما بأنه سيفصل من الكلية.. إن لم يحدث هذا الآن فسيحدث في السنة القادمة مع الأسف!!.. وحتى في هذه الحالة.. فلن يسمح له والده بالالتحاق بالمعهد العالي للفنون المسرحية كما علمنا..

كان (جاسم) يضيع وقتا طويلا في الحديث عن أحزانه وعن والده.. يتحدث ويتحدث ثم يشيح بوجهه مداريا دمعة.. فأقول له مشجعا:

-لو كان بوسعنا أن نختار أهلنا لتحولت الحياة إلى جنة صغيرة.. أن تختار بيئتك وأبويك وزملاءك في العمل وربما رؤساءك.. فهكذا تصير الحياة أجمل من أن تصدق!!.. ولكن هيهات.

لقد حدثني عن عشقه للتمثيل.. وأخبرني كلاما جميلا بالفعل.. فكان يقول:

-إن التمثيل يعني القدرة على الخيال.. وفي رأيي أن الإنسان الغبي هو الإنسان معدوم الخيال.. هو الذي ينظر فقط إلى سطح البحر ولا يتخيل ما في أعماقه من جمال.

ويستطرد بحماس مدافعا عن حبه للفن:

-لهذا صنع الإنسان الفن.. الفن الذي يذيب روتين الحياة تماما ولو للحظات.. إن أغنية جديدة أو فيلما شائقا أو رواية مسلية.. لهي أشياء تنسينا أننا سنصحو وننام ونحن ما زلنا نحن.. لذا يجب على الفن أن يخصص لتثقيف الشباب.. وتعليم الحق والخير والجمال.. وليس كما يفعل أهل الفن عندنا.. أفلام سخيفة.. مسلسلات أسخف.. دعك من مسلسلاتنا التاريخية التي لا علاقة لها بالتاريخ والجغرافيا.. فبدلا من تأليف مسلسل تاريخي يؤلفون لنا تاريخاً!!!.. كما تكتشف أن أبطال العرب لم تكن لديهم عضلات.. بل كروش!!!..

كنت أضحك رغما عني وأوافقه الرأي بحماس وأتمنى أن يكون توجه الفن بهذه الصورة.. ثم أتذكر وأذكره أن هناك طنا من الدروس يجب عليه مراجعتها!!.. وأخبره أنه إذا أراد أن يكون قنوعا.. فعليه أن يتطلع إلى مصائب الآخرين وإذا أراد أن يكون متذمرا فليتطلع إلى مميزات الآخرين!!.. المشكلة أنني أقول له كلاما لا أؤمن به أنا نفسي!!..

هذه باختصار قصتي مع (جاسم).. وهي كما ترون قصة عادية لا يميزها شيء لولا ظهور شخص آخر في أحداثها.. إنه (منصور).. اسم لشخص كبير حتى ليخيل إلي أن أي (منصور) في هذا العالم لم يكن يوما طفلا!!..

كيف التقيت به؟!.. في الكلية أيضا.. لكنه ليس طالبا فيها.. الواقع أنه يكبرني بسبعة أعوام تقريبا.. أي أنه في الرابعة والعشرين من العمر.. وهو مهندس كيميائي يعمل في وزارة الطاقة!!.. وقد كان وراء لقائي ب(منصور) قصة غريبة هي بوجهة نظري البداية الحقيقية لقصتنا هذه!!.. ففي ذات يوم في الكلية وبعد مرور شهر تقريبا على ترددي على بيت (جاسم) ومع اقتراب موعد الاختبارات الفصلية.. كنت بحاجة إلى مساعدة من دكتور مادة (الأحياء) في أحد النقاط المتعلقة بمادته.. وهو رجل متبختر متغطرس إلى أبعد الحدود.. كنت أمقته كثيرا!!.. فهو من الطراز نافد الصبر الذي لا يطيق الشباب.. بل ولا يؤمن بتدرج العلم!!!.. وهذا سخف حقيقي يمكن فهمه لو قارنت

بين طالب السنة الأولى في الكلية وطالب السنة الرابعة.. ليس طالب السنة الأولى أغبى أو أكثر حمقا.. هو فقط في الدرجة الأولى من سلم العلم.. ولن يلبث أن يرتقي بعلمه.. لكن هذا الدكتور كان يرى طالب السنة الأولى -على غراري- بطيئا جدا.. غبيا جدا.. سخيفا إلى حد لا يطاق!!.. وكأنما هو قد ولد عالما!!..

التقيت به في الممر الطويل الذي تطل عليه بعض قاعات المحاضرات.. ماذا كان يفعل هذا الدكتور المتبختر عندما رأيته؟!.. يمشي متبخترا طبعا!!.. كان ضخم الجثة.. يرتدي نظارات غليظة يستحيل معها أن ترى عينيه.. وهو من ذلك الطراز الذي يتجمع اللعاب عند طرفي فمه.. مما يجعل النظر إلى وجهه عملا بطوليا!!.. خاصة عندما يغضب.. وهو دائما غاضب.. وغضبه يعني دوما الصراخ ولترا من اللعاب يسقط فوق رأس طلبته.. لذا فقد كنت حذرا أتكلم معه بكياسة..

رأيته في الممر فوجدتها فرصة لسؤاله.. وليتني لم أسأله.. فقد نظر إلي بتعال.. و:

-لماذا لا تبحث في الكتب؟!.. ستجد الإجابة..

فقلت له باحترام صادق وبابتسامة:

-دكتور.. أنت تعرف الإجابة وستسهل علي الأمر!!..

رد وكأنه يبصق في وجهي:

-هكذا أنتم.. تريدون أن تحصلوا على كل شيء بسهولة!!..

بهت من طريقة كلامه.. أعرف أنه وغد ولكن ليس إلى هذه الدرجة!!.. كنت أتحدث معه في أحد الممرات التي تعج بالطلبة.. ومع صوته المرتفع.. كان من الطبيعي أن ينتبه إلينا الجميع مما أشعرني بحرج شديد!!.. لكنني رغم هذا رددت عليه بأدب أيضا.. راجيا منه أن يجيبني على سؤالي.. ولكن:

-لا..

أدار ظهره لي بعد ذلك بتلك الطريقة التي تعني أنه لا يوجد لديه ما يقال!!.. وهذا مهين للغاية.. يريدوننا أن نكون في مستعمرة نمل أو خلية نحل بلا رأي ولا ذاتية خاصة.. والسبب هو.... لا أعرف السبب في واقع الأمر.. ولم أجد الوقت لأفكر بالسبب.. فقد ظهر (منصور) بشكل مفاجئ.. وسمعت صوته من خلفي وهو يقول للدكتور بتحد وبصوت حرص على أن يسمعه الجميع بما فيهم الدكتور طبعا:

- لقد كان طلبة العالم العظيم (آينشتاين) يشعرون بالخجل منه لأنه كان يقدم لهم الشاي بنفسه!!!.. فالعلماء والعظماء متواضعون في كل مكان وزمان.. إنهم التافهون فقط الذين يصعرون خدهم للناس طوال الوقت.. فلا تكن تافها يا دكتور!!..

التفت لأرى (منصور)!!.. شاب نحيل الجسم متوسط القامة يبدو في منتصف العشرينيات من العمر كما علمتم.. وجهه يحمل ملامح طيبة تشعرك بأنه أخ أو صديق قديم.. يرتدي لباسا رياضيا ويملك عينا تنظر لك بجرأة وثبات.. وكان ممسكا بكوب ورقي يحوي مشروبا باردا.. صعق الدكتور تماما.. وسكت للحظات دون أن يجد ما يقول أمام هذا الرد الذكي!!.. خاصة وأن (منصور) قد تعمد الحديث بصوت مرتفع كي يسمعه الجميع..

لكن الدكتور التقط أنفاسه وقال بعصبية فيها الكثير من الذهول:

-لو كان أهلك أحسنوا تربيتك لما خرج منك هذا الكلام!!!..

ماذا كانت ردة فعل ذلك الشاب؟!..

جاء رده هادئا تماما ولكن بصوت حرص على أن يسمعه الجميع أيضا:

-قلت لك أن تهدأ قليلا.. لو كان الصراخ موهبة لأصبح الحمار أعظم الموهوبين!!..

فقد الدكتور صوابه أمام هذه الإهانة.. وانتفض وهو يصرخ على بعد سنتيمترات قليلة من (منصور):

- من أنت حتى تكلمني بهذه الطريقة؟!.. من تظن نفسك؟!.. أنا الذي حصلت على شهادة الدكتوراه من قبل أن تولد أنت!!..

رد عليه (منصور) متحديا بصوت أعلى ودون أي انفعال عصبي:

- أتمنى أن تحاول الرد على طلابك بشكل مهذب بدلا من ممارسة هوايتك في إذلالهم.. لقد استفدت علميا من الشهادة.. لكنك لم تستفد أخلاقيا!!..

تراجعت لا شعوريا للوراء ولم أنطق بحرف.. وابتعدت عن مسرح الشجار قدر المستطاع!!.. لا أريد أن أتورط في مشكلة مع الدكتور.. ولكن بدا أن الأمر لن يتوقف عند هذا الحد.. فقد صرخ الدكتور بجنون وهو يقول:

-إن لسانك المشاكس لا يمكن ترويضه حقا.. وقد تكون السكين هي الأسلوب الوحيد للتعامل معه.. إنك وقح وقليل أدب ولا بد من مجلس تأديب ليقوم بفصلك!!..

فيرد عليه (منصور) بتحد:

-لست طالبا هنا..

وأشار إلي قائلا:

-اعتذر منه.. إنه لم يفعل شيئا يستحق منك هذه الضجة!!.. وعندما آمرك بشيء فعليك أن تنفذه.. بل وتسعد به أيضا.

رد عليه الدكتور صارخا بجنون:

-حقا؟.. لماذا لا أشعر إذا بهذه السعادة؟!..

رد عليه الشاب بسرعة:

-لأن سترتك متسخة.. ومن الصعب أن تشعر بشيء آخر سوى الحرج..

قالها وفي اللحظة ذاتها قذف محتويات الكوب الذي كان في يده باتجاه الدكتور.. وهكذا وثب الدكتور صارخا كأنما لدغه ثعبان.. وصرخ في هستيريا ممسكا ب(منصور) من ثيابه قائلا:

-أنت مريض نفسي حقيقي!!.. سايكوباث حقيقي!!..

قال (منصور) ببرود:

-ربما.. ولكن سايكوباث بثياب نظيفة!!.

و.. لم يمنع الدكتور من الاعتداء على (منصور) سوى تدخل عدد كبير من الإداريين والطلبة لفض الاشتباك!!..

لن أخفي عليك عزيزي القارئ أنني سعدت كثيرا بما حدث.. فالناس تعشق أن ترى المتغطرسين يفقدون كرامتهم!!.. ولكن شعورا بالخوف مما قد يصيبني أفقدني الكثير من الاستمتاع.. قد يوجه هذا الدكتور اللوم لي.. ويعتبرني شريكا في إهانته على الرغم من أنني لم أفعل شيئاً على الإطلاق..

وقد استدعتني إدارة الجامعة يومها للتحقيق كما توقعت.. فحادث كهذا لا يمكن أن يمر مرور الكرام في الحرم الجامعي.. إلا أنه بدا واضحا للجميع أن لا ناقة لي ولا جمل بما حصل.. واقتنعوا بالفعل -بناء على كلام الشهود- أنه لا تربطني أي علاقة ب(منصور).. بل ولم أكن أعرف اسمه حينها.. وتبين أنه ليس طالبا في الجامعة أصلا كما قال بنفسه أثناء شجاره مع الدكتور!!..

خرجت من بوابة الكلية بعد التحقيق متجها إلى سيارتي عائدا إلى البيت.. و..

-بست!!..

سمعت ال(بست) هذه فالتفت.. وإذا ب(منصور)!!.. بصراحة لم أرد أن أحتك به على الإطلاق خوفا أن يراني أحد ممن شهدوا الشجار ويظن أنه صديق لي.. لكنه لم يمنحني أي فرصة.. إذ أسرع نحوي وهو يمد يده ليصافحني.. فلم أجد مفرا من مصافحته بالطبع.. و..

-مرحبا.. آمل ألا يكون ذلك الدكتور المتعجرف قد أغضبك..

قلت له بقلق:

-المشكلة ليست متعلقة بي.. بل بالدكتور.. فكل ما أخشاه أن ينتقم مني.. وأنت تعرف أنه يملك مصيري تماما!!..

-لا تخش شيئا.. إنك لم تتدخل في الشجار ولم يبدر منك ما يوحي بأنك تعرفني أصلا..

سألته وقد تنفست الصعداء قليلا عندما تأكدت أن أحدا لا يرانا في مواقف السيارات:

-ماذا ستفعل؟!..

-مع من؟!!

-مع الدكتور..

-لا يهمني ما سيحدث.. فأنا لست طالبا في الجامعة.. لا بد أنك قد عرفت ذلك.. فليذهب هذا المتعجرف بأسلوبه البغيض إلى الجحيم.. لقد أتيت إلى هنا لرؤية صديق.. أحد الموظفين الإداريين في الجامعة.. وقد تصادف مروري بالقرب منكما.. لم أحتمل رؤية الدكتور يحادث طلبته بهذه الطريقة.. خاصة وأنك كنت مهذبا في الحديث معه!!..

راقت لي جرأته كثيرا.. ولا أعرف كيف انتهى بنا المطاف كي نتبادل أرقام هواتفنا لنلتقي!!!.. كانت بيننا أولا مكالمة هاتفية طويلة تحدثنا فيها عن كل شيء يمكن أن يتحدث فيه شابان.. لنلتقي بعد هذا بأيام قليلة في (ستار بكس) منطقة (مشرف).. حيث جلسنا هناك في أحد أيام عطلة نهاية الأسبوع وتحدثنا لأكثر من 3 ساعات.. لأكتشف أن (منصور) إنسان لطيف المعشر على قدر لا بأس به من الثقافة.. وكان اجتماعيا مولعا بالبشر كما بدا لي.. وهو يملك تماما دفة مشاعره.. فيقدر على أن يكون سمجا متى أراد ذلك.. وأن يكون لطيف المعشر متى ما أراد ذلك أيضا..

كان أغلب حديثي معه -بحكم عمرنا- عن الفتيات وعن علاقة الشباب بالفتيات.. وكنت أحيانا أشكو له حالي ومللي ويأسي من هذا العالم.. فينظر إلي.. ويقول مشجعا مازحا:

-لو كنت ستمضي يومك في الاستمتاع بالرثاء لذاتك فإنني أرجو أن تخبرني متى تنتهي..

أقول له دون الالتفات إلى مزحه:

-إنني أنتظر التخرج من كلية الطب.. أشعر أن الحياة ستكون أفضل بكثير..

فيرد بجدية:

-دعني أخبرك بشيء هام.. لا تقض حياتك بانتظار أن تنتهي الفترة كذا والفترة كذا!!..

ثم لوح بيده قائلا:

- أن تنتهي فترة الدراسة.. أن ينتهي مشروعك.. إلخ.. ستجد أن حياتك صارت مجموعة من الفترات يجب أن تنتهي.. وفجأة تكتشف أنك بلغت نهاية العمر ولم تنعم بحياتك يوما واحدا.. يجب أن تستمتع بكل فترة وكأنها الصورة الوحيدة النهائية لحياتك..

لا بأس.. لا بأس بكلامه إطلاقا!!..

أقول له مبتسما:

-ربما يكون كلامك صحيحا.. لكنني أشعر بأنني أفقد شمعة شبابي بسرعة البرق.. لقد نلت -ككل البشر- شمعة هي حياتي.. حيث من المفترض أن أشعلها وأنتظر حتى تذوب كلها ثم ألحق بالأبدية!!.. لكن شمعتي تحترق بمعدل غير معقول.. تحترق من الطرفين!!.. ماذا أفعل؟!.. إن أيامي متشابهة كحبات الأرز.. أو حبات العدس..

-يبدو أننا أصبحنا نعيش في طبق من الكشري!!

يقول هذا.. فأضحك لدعابته..

هذا هو (منصور) الذي أصبح صديقا لا بأس به على الإطلاق.. صحيح أنها صداقة قد لا تدوم طويلاً.. لكنها صداقة على كل حال..

وكما جرت العادة.. فهناك نقطة تبدأ من خلالها أحداث أي قصة في العالم.. كانت النقطة في عبارة قلتها ل(منصور) مفكرا بصوت مرتفع:

- لا أعرف ماذا فعل (جاسم).. فأنا لم أزره هذا الأسبوع.. أراه في المحاضرات ويتوارى مسرعا متعللا بأنه منشغل..

سألني باسما:

-(جاسم) من؟!..

-(جاسم ال...) زميلي في الكلية.

أقسم لكم بأن وجه (منصور) قد تغير وامتلأت ملامحه حقدا:

-هذا الخنزير!!!!!.. زميلك في الكلية؟؟؟؟.

استغربت كثيرا من ردة فعله:

-لماذا تصفه بالخنزير؟!.

-إنه أحقر إنسان ممكن أن تقابله في حياتك..

هنا بدا علي الاهتمام.. لا أدري كيف أبدو حين أكون مهتما.. لكني بالتأكيد أكون مقنعا.. و:

-لماذا؟!.

رد باقتضاب:

-معذرة.. لا أرغب في الحديث عن الأمر..

ثم استأذن بالذهاب متعللا أن الوقت متأخر!!.. وعبثا حاولت معرفة سبب كراهيته ل(جاسم) بينما نحن نسير سويا متجهين إلى مواقف السيارات.. لكنه رفض النقاش في هذا الموضوع نهائيا!!.. ثم نسيت الأمر برمته.. ولم أتذكر الأمر مرة أخرى إلا عندما رأيت (جاسم) في الكلية بعد يومين.. ذهبت لمصافحته.. وإذا به يخاطبني ببرود شديد أشعرني بالمهانة.. فسألته بنوع من الحدة:

-لماذا تعاملني بهذه الطريقة؟!..

-إن (منصور) صديقك أليس كذلك؟!.. لقد كنت موجودا حين وقف إلى جانبك في شجاره مع الدكتور..

فوجئت بكلامه هذا.. وكأن معرفتي ب(منصور) اتهام لي!!.. سألته باستغراب:

-ما الذي يجري هنا؟!.. ما هو سر العداء بينكما؟ !!..

مط شفتيه ممتعضا:

-لا أرغب في الحديث عن الأمر!!..

وهكذا عزيزي القارئ!!.. عرفت أن الاثنين يكنان كراهية شديدة لبعضهما.. فكنت أرى الأمر غريبا في بادئ الأمر!!.. لكني خمنت بعد تفكير أن خلافهما قد يكون حول فتاة لا تعرف شيئا عن كلاهما كما جرت العادة بين الشباب!!.. وقد أراحني هذا التخمين حتى أنني نسيت الأمر تماما!!.

لم أقابل (منصور) بعد شجاره مع الدكتور سوى مرتين.. وبعدها بأيام قليلة.. اتصل بي (جاسم) راجيا مني الحضور إلى منزله!!.. خاطبني هذه المرة بأدب واعتذار عن طريقة كلامه معي.. وتوسل إلي أن أزوره!!.. فالاختبار بعد يومين فحسب.. لماذا لا يزورني هو؟!.. لأن والده لا يسمح له بالخروج!!..

جلسنا قليلا في غرفة الجلوس.. ليأتي والده ويجلس معنا مرتديا الروب ذاته الذي يرتدونه من يمثلون دور الأوغاد في الأفلام العربية!!.. استأذننا (جاسم) قليلا للذهاب إلى الحمام وليجلب كتبه من غرفته كي أستذكر له دروسه..

في حين جلسنا والده وأنا نشرب الشاي.. إن رائحة الشاي الحميمة الدافئة في فصل الشتاء كفيلة بجعل أعصابك تفيق من سباتها وتورق وتتفتح أوراقها.. حتى أن الصمت قد ساد تماما سوى من صوت رشف الشاي..

فكرة جديدة لشيء يقال!!.. شيء يقال!!.. ثم.. وضع الأب ساقا على ساق كاشفا عن عظام يكسوها الشعر.. وقال:

-خالد.. أنا لا أعرف شيئا عنك.. من هي عائلتك؟؟

أخبرته باسم والدي وعائلتي.. ثم.. شيئا فشيئا بدأنا نتحدث ونتحدث إلى أن جذبنا الحديث لأمور أخرى وبدأت أقول لوالد (جاسم) كلاما راقيا عميقا جدا عن الحياة والعلم.. كلام لا يعيبه سوى أنني لم أفهمه أنا نفسي!!..

وبدأ يتحدث هو عن شبابه.. وكيف كان أحمقا!!.. فهو يرى أن جميع الشباب حمقى.. وبدا واضحا أنه يتمنى أن يكون ابنه بتفوقي الدراسي.. لم يفرحني هذا الكلام.. بل ضايقني كثيرا.. ف(جاسم) إنسان طيب القلب لا يعيبه شيء.. ومشكلته الوحيدة أنه يدرس تخصصا يكرهه.. و.. وجدتها فرصة لأغير دفة الحديث لأسأل الأب:

-سيدي.. هل تعرف شخصا يدعى (منصور)؟!

قال وهو ينظر إلى السقف محاولا أن يتذكر:

-(منصور).. إذا كان هو (منصور) الذي تقصده فهو صديق (جاسم)..

قلت باستغراب:

-(منصور ال...).. صديق ل(جاسم)؟!!!!

سألني باستغراب هو الآخر:

-وما الغريب في هذا؟!..

-لقد تحدثت إلى كليهما واكتشفت إنهما يكرهان بعضهما إلى درجة الجنون.. وكأن هناك عداء أو ثأراً بينهما!!

أجابني بوجهه الصارم وبلهجة من لا يهمه الأمر:

-لا أدري.. ربما حصل بينهما خلاف..

ثم قال بغضب لا مبرر له:

-هذا الجيل الجديد يفتقر إلى الأدب!!.. وأعتقد أن بعض الصفعات يمكن أن تصلح الأمور.. في طفولتنا كنا على خلق وكنا نحترم الكبير.. لكن هذا الجيل الذي يطيل شعره كالفتيات ويتمرد على كل شيء.. و..

شتائم لا نهاية لها لشباب هذا الجيل -منهم أنا بالطبع-إن والد (جاسم) نموذجا فريدا من نوعه.. الرجل الذي دائما يشعر بأن هناك خدعة ما.. أصحاب المحلات التجارية يحاولون خداعنا.. التجار نصابون!!.. الأفلام مشينة!!.. المسلسلات تافهة.. كل الكتب لا تقول شيئا هاما.. كل الأزواج خائنون!!.. وكل الزوجات سافلات!!.. الخلاصة أنه وصل إلى السلام بشكل تام مع كل غوامض الكون..

دار بعدها الحديث في كلام فارغ وما أكثر الكلام الفارغ في هذا العالم!!.. ربما لدقائق قليلة أخرى.. وكانت عبارته الخالدة هي: لم يعد الناس كما كانوا.. وهي عبارة يرددها منذ عشرين عاما كما قال لي (جاسم) سابقا.. حتى أنك لا تعرف متى كان الناس (كما كانوا)..

وأثناء حديثنا طرق باب منزلهم زائر ما.. هل تعرفون هذا الزائر؟!.. نعم.. إنه (منصور)!!!.. استغربت كثيرا.. فلم أتوقع أن يزور (جاسم) في بيته.. دخل وسط ترحيب بارد من الأب.. وجلس

بيننا بعد أن ألقى علي التحية.. ثم قال سريعا وكأنه قرأ أفكاري:

-إنها صدفة رائعة أن أجدك هنا يا (خالد).. فقد جئت لأتفاهم مع (جاسم) حول سوء الخلاف الذي بيننا.. لقد أقنعتني بكلامك.. فمهما كان الخلاف الذي بيننا.. لا بد أن يكون له حل.. وأنا قد أتيت لحل المشكلة مع (جاسم).. خاصة وأنه كان صديقا عزيزا!!..

سأله والد (جاسم) بلا مبالاة:

-ما هو سبب خلافكما؟!..

فرد عليه (منصور) بجدية:

-إنها مسألة لا أحب مناقشتها مع أحد يا سيدي فأرجو المعذرة.. ولكن هل تسمح لي بالحديث مع (جاسم).. أريد أن أتحدث معه على انفراد..

أشار والد (جاسم) بيده قائلا:

-تفضل.. تستطيع الصعود لغرفته!!..

تركنا (منصور) صاعدا إلى غرفة (جاسم).. ويبدو أنه طرق الباب عدة مرات بهدوء دون مجيب.. حيث ازداد بعدها صوت الطرقات حدة.. لدرجة أننا سمعناها بوضوح ونحن في الدور الأرضي!!.. حتى أن والد (جاسم) ذهب مسرعا ليستطلع الأمر.. فتبعته أنا لا شعوريا.. لنجد (منصور) في أعلى الدرج يحدثنا من هناك بعصبية:

-لماذا لا يفتح لي الباب ولا يرد علي؟!..

قال له والد (جاسم) بعصبية:

-هذا الأحمق لا يعرف أدنى أصول اللياقة.. سأصعد إليه وأكلمه..

فوجئت ب(منصور) وهو يصرخ في وجه والد (جاسم) بطريقة أثارت استغرابي كثيرا حتى أن الرجل قد صعق تماما ولم يتخذ أي رد فعل لثوان!!..

-سأتحدث إليه بنفسي يا سيدي وأضع حدا لغطرسته هذه التي لا مبرر لها.. هذا الوغد لا يعرف أدنى أصول اللياقة كما تقول بنفسك..

وقبل أن نتخذ أي رد فعل.. تركنا مسرعا متجها إلى غرفة (جاسم) وخطوات حذائه تدب فوق السيراميك.. ففتح الباب بقوة متجاهلا كل قواعد الأدب!!.. وأغلقه خلفه!!.. جرينا نحو الباب كالملدوغين لتهدئة الوضع قبل أن يتحول الأمر إلى شجار.. حاول والد (جاسم) أن يفتح باب الغرفة لكنه كان مقفلا من الداخل!!.. وسمعنا صوت (منصور) يقول بغيظ:

-إذا أنت ترفض أن تكلمني على الرغم من أنني جئتك إلى منزلك للتفاهم معك بكل احترام؟!.. لماذا هذه الكراهية؟!.. لماذا هذا الحقد؟!..

رد (جاسم) بهدوء مثير وسخرية مستفزة:

-كراهية؟!.. فقط كراهية؟؟!!.. إنني أكرهك كراهية تكفي لقتل نصف سكان الأرض..

صاح (منصور) وبخار الغيظ يخرج من أذنيه.. أو هذا ما بدا لي:

-ليس هذا غريبا عليك.. فأنت إنسان حاقد بالفعل.. وقلبك أسود كالكوابيس..

بدا أن هناك إيقاعاً غاضباً يتصاعد كلمة بكلمة.. وكأنهما يتسلقان جبلا يحاول كل منهما أن يبلغ قمته قبل الآخر!!.. تصاعد هارموني على طريقة (الكريشندو) الموسيقية الشهيرة حتى نصل درجة الصراخ..

كان شجارهما يحوي عبارات من تلك التي لا يمكن أن تعود الأمور بعدها إلى نصابها!!.. بل ويستحيل حتى التراجع عنها!!.. فكان كل منهما يرغي ويزبد ويتوعد مستعملا كل أنواع الشتائم التي لم أسمعها في حياتي قط!!.. وقد بدت لي وقاحة (منصور) غريبة بالفعل ولا حد لها كي يزور أحدهم في منزله ويتشاجر معه ويشتمه بهذه الطريقة مهما كان سبب خلافهما!!.. لم أعهد (منصور) بهذه الصورة!!.. ربما لم أكن أعرفه جيدا.. إذ لم تكن علاقتي معه سوى علاقة سطحية جميلة جدا.. لا يعرف عيوبي ولا أعرف عيوبه.. كحال معظم العلاقات السطحية.. إن العلاقات السطحية تكون جميلة دائما!!.. أما تعميقها فهو الطريق الملكي إلى المشاكل.. لأنك متى ما تعمقت فيها فستكشف زيف الناس!!.. والصديق بوجهة نظري هو الإنسان الذي يحبني بعد أن يعرف عيوبي..

كان صوت أنفاسنا أنا ووالد (جاسم) اللاهثة تنتظر خارج الغرفة.. فقلت لهما بقلق وأنا أقف عند باب الغرفة من الخارج:

-اسمح لنا بالدخول يا (جاسم).. إنه مجرد سوء تفاهم بسيط.. أرجوكما افتحا الباب.. إن التفاهم بهدوء سيحل كل المشاكل..

ارتفع بعدها صوت (جاسم) من الداخل وهو يصيح بي:

-فلتخرس أنت أيضا أيها الأحمق.. لولا والدي لما لجأت إليك.. لماذا لا تصبح أنت ولده طالما هو فخور بك إلى هذا الحد؟!..

كان من الواضح أن ثورة (جاسم) عارمة لدرجة أنه أهانني شخصيا دون أي جريرة مني!!.. حتى أن والده أخذ يدق الباب هو الآخر بقلق يرجوهما أن يسمحا له بالدخول.. وبدا أنها المرة الأولى التي يرى فيها ولده يتصرف بهذه الطريقة..

لقد تبين أن هناك جروحا نفسية غائرة لا أعرف سببها بين (جاسم) و(منصور) ولن تشفى بسهولة.. لا شيء سوى الصراخ.. سيل من الصراخ.. وكأنهما يحفران نفقا في أعصابنا نحن اللذين ننتظر خارج الغرفة..

سمعنا صوت (منصور) يقول بسخرية عصبية:

- طبيب يريد أن يصبح ممثلا!!!.. أنت لن تفلح في كلية الطب ولن تفلح حتى في التمثيل أيها الفاشل!!..

شعرت للحظة أن (منصور) قد عزف على وتر حساس جدا في نفسية (جاسم) فرد عليه هذا الأخير بثورة هائلة:

-أنت أيها المغرور يا من تظن نفسك أعظم الناس.. أنت لا شيء.. لا شيء.. أنت وغد منحط.. ولولا خوفي من الله لحرقتك وحولتك إلى رماد.. لحرقتك إلى أن تختفي جثتك.. إلى أن..

فجأة.. صمت الاثنان!!!.. وارتفع صوت رهيب كفحيح الأفاعي!!.. ثم صرخة رعب عالية خرجت من حنجرة (جاسم) جمدت الدماء في عروقنا.. وأخذ والده يدق باب الغرفة في ذعر وقلق وبدا أن

جسده كله ينتفض.. كجسدي تماما.. وهو يصرخ:

-ماذا حدث؟؟!!!.. ماذا حدث؟؟؟؟.. افتحا الباب بالله عليكما..

وفي عنف بدأنا بتهشيم كتفينا.. أعني تهشيم الباب غير ناسين من حين لآخر أن ننادي في هستيريا:

-افتحا الباااااااااب!!..

ولم تمض دقيقة حتى فتح (جاسم) الباب.. والتقت أعيننا بعينيه الذاهلتين الزائغتين ووجهه الشاحب الذي اختفت منه الدماء من الرعب!!.. وأقسم لكم بأنه بدا لي وكأن أعواما طويلة من عمره قد انقضت في تلك اللحظات!!.. ولا ننسى ظاهرة الإشعاع السايكوفيزيائي التي مارست سلطانها علينا في ثوان!!.. تلك الظاهرة التي يتحدث عنها علماء النفس.. ومعناها باختصار شديد (العدوى النفسية) !!.. فحين يصرخ جندي واحد: إلى القتال.. تجد أن الحماسة تدب في الكتيبة بأكملها.. وحين يضحك اثنان أمامك تجد نفسك تضحك لا شعوريا.. وحين ينتاب الرعب من يجلس معك يصيبك أيضا ذلك الرعب قبل أن تعرف سببه..

وقد شعرنا بالفعل برعب هائل من مظهره.. والأغرب من ذلك أن ثيابه كانت غارقة في العرق.. ووجهه كذلك!!.. إن حرارة الغرفة تبدو عادية.. فمن أين جاء بكل هذا العرق؟!.. كما شممنا رائحة غريبة خرجت من الغرفة عندما فتح (جاسم) الباب.. رائحة ممزوجة برائحة البرق والأوزون -إن كان للأوزون رائحة- منفرة نعم لكنها ليست كريهة لو كنت تفهم ما أعنيه.. هل هي رائحة الموت؟ ؟!..

كسر (جاسم) حاجز الصمت عندما ردد وهو يرتجف:

-لقد.. لقد.. لقد قتلته.. قتلت المسكين.. لقد احترق.. وتبخر تماما!!..

هرعنا مسرعين إلى الغرفة.. وإذا بأغرب ما يمكن أن أراه في حياتي!!.. رأينا ثياب (منصور) كاملة.. لكننا لم نجده هو!!.. كانت ثيابه ملقاة على الأرض بطريقة تبدو وكأنه قد تبخر!!!.. تبخر وترك ثيابه خلفه!!!..

عزيزي القارئ.. لقد رأيت الكثير في حياتي وصرت على استعداد لتصديق كل شيء.. ولكن لم أتوقع أبدا رؤية شيء كهذا.. لماذا تحدث هذه الأمور لي أنا فقط!!..

خيم الصمت على المكان تماما لدقائق.. قبل أن أقول مذهولا واضعا يدي على رأسي:

-ولكن هذا مستحيل.. إنه أمر مذهل.. مذهل بكل المقاييس!!!!..

أما والد (جاسم) فقد أخرسته المفاجأة تماما..

ووجدت ولده يقول وهو يبكي بحرقة ويصيح هلعا:

-لم أر في حياتي شيئا كهذا.. إنسان ينبض بالحياة تبخر أمامي تاركا ثيابه.. كان شيئا رهيبا.. شيئا رهيبا!!..

تحدث والده أخيرا بعد أن أفاق من الصدمة وهو لا يزال يحدق ببلاهة بثياب (منصور):

-أي شيطان فعل هذا؟ !!.. أي جنون هذا؟!.. أي عبث هذا؟!.. أي....

بدا لي أنه لن يتوقف عن وصف الموقف.. سألت (جاسم) لاهثا محاولا أن ألتقط أنفاسي:

-ما الذي حدث بالضبط؟!

رد باكيا وهو يدفن وجهه بين كفيه:

-أنا المسؤول عن كل هذا يا (خالد) أنا.. وإن كنت لا أعرف حتى الآن كيف..

ثم راح يحكي ما حدث بصوت مرتجف وسياق مختل:

-إنه إحساس لا يوصف ولا يمكنني أن أقربه لكما.. وإلا لغدوت (شكسبير) هذا العصر!!.. في البداية فوجئت عندما سمعت صوت (منصور) خارج باب غرفتي.. فلم أتوقع منه زيارتي قط بسبب علاقتنا السيئة.. بل إنه لم يزرني من قبل!!.. ولا أعرف كيف عرف عنوان البيت أصلاً!!.. فتمالكت أعصابي وتجاهلته لأني لم أكن أرغب في التحدث إليه.. ظل يرجوني أن أفتح له الباب للتفاهم.. لكني واصلت تجاهله!!.. لأفاجأ به بعدها بدقائق يقتحم غرفتي كما رأيتم!!.. ويقفل الباب علينا وكأنه لا يريد منكما الدخول بتصرف أثار استغرابي كثيرا!!.. وبدأ بإهانتي.. فرددت عليه الإهانة بالمثل.. إلا أنني فقدت التحكم تماما بأعصابي من إهاناته المتواصلة ولم أستطع السكوت!!.. إذا أمسكت به من ياقة قميصه وهددته بأنني سأحرقه!!..

تحول (جاسم) إلى الانفعال الشديد في النصف الثاني من قصته.. وبدأ ينتحب باكيا وهو يتحدث.. حتى أنني أسرعت لا شعوريا أربت على كتفه مشفقا مهدئا.. إلى أن استكان واستطرد:

-وفجأة.. خيل إلي أن الطاقة المتدفقة في عروقي قد تحولت إليه.. ورأيت البخار يتصاعد منه.. فتركته في هلع.. خاصة وقد شعرت بأن يدي قد أصبحت ساخنة جدا.. الغريب أنه كان شاردا تماما وهو يتبخر وكأن هناك كيانا ما يخاطبه ويشده إليه.. ظل هكذا إلى أن تبخر المسكين تماما في حين لم تتأثر ثيابه على الإطلاق!!.. لقد شعرت برعب هائل جعلني أصرخ بهلع دون أن أشعر بنفسي!!.. حتى تنبهت إلى الطرقات العالية على الباب.. فأسرعت أفتحه لكما.. وبالطبع تبخرت كراهيتي لـ(منصور) في لحظة.. فلا أستطيع أن أحتفظ بكراهيتي لشخص رأيته يموت أمامي في حادثة مخيفة لا تصدق كهذه!!..

سكت قليلا وهو يدفن وجهه في راحة كفيه ويقول:

-حدث كل شيء بسرعة!!.. لقد بدا لي أن المسكين لم يجد الوقت ليتألم أو يصرخ!!..

انتهى (جاسم) من حديثه والدموع لا تزال تملأ وجهه!!.. فالتفت إلي والده متسائلا وكأنه يريد أحدا يستنجد به.. وسألني بتوتر:

-م.. م.. ما الذي يحدث هنا؟!..

ازدردت لعابي.. وسكت لوهلة وكل ذرة في جسدي ترتجف.. هل يعقل أن أرى كل هذه الأهوال في حياتي؟!.. ترى ماذا سأرى عندما أبلغ الـ30 من العمر؟ !!.. هل يعقل أن يعيش شخص واحد كل هذه التجارب الغارقة في هذا المستنقع الميتافيزيقي؟!.. هل أنا منحوس لهذه الدرجة؟؟.. هل كل التجارب التي أتعرض لها ولا يتعرض لها سواي في هذا العالم صدفة؟ !!.. من الصعب تحميل الصدف كل هذا!!!!!.. ولكن لا جواب آخر لدي.. إنني حقا إنسان غريب أعيش في عالمي الخاص.. عالم آخر له أبعاد ومقاييس أخرى!!.. هل..

-(خالد)؟!.. أجبني بالله عليك!!..

التفت مصعوقا وكأن هناك من أيقظني بعنف من نوم عميق.. فقلت في ذهول لم يفارقني بعد:

-لا رأي لي سيدي.. هذه القصة غريبة بالفعل.. بل أنني لم أر شيئا كهذا في حياتي.. لقد قرأت عن هذا الأمر من قبل.. لكنني لم أظن للحظة أنني سأشهده بنفسي.. إنها....

وقبل أن أكمل كلامي.. تذكرت أمرا هاما.. فهرعت أفتش في دولاب الغرفة وتحت الفراش وفي كل مكان آخر يصلح لإخفاء شخص أو.. جثة!!.. لكن.. لا شيء بالطبع.. إن الأمر لا يمكن أن يكون بهذه البساطة!!..

حدقا بي في ذهول.. ثم قال (جاسم) بحزن:

-هل تعتقد أنني سأقتله بدم بارد وأخفي جثته؟!..

وجدت نفسي أتخذ جانبا عدائيا دون قصد وأنا أقول ببرود:

-يمكن عمل هذه الأشياء دون دم بارد.. يمكنك أن تقتل وأنت ترتجف وتبكي.. لكنك برغم هذا تفعله.. كل النساء اللاتي دسسن السم لأزواجهن ارتجفن وهن يفعلن هذا!!..

قال بعصبية وهو يمسح دموعه:

-أين ذهبت جثته إذا أيها الذكي؟؟!!!..

زفرت بقوة.. لأتذكر ما كنت أود قوله لهما قبل أن أفتش الغرفة:

-هل سمعتما عن الاحتراق الذاتي؟!

هز الاثنان رأسيهما نفيا!!..

أخذت نفسا عميقا.. وتنهدت كمن ينوي إلقاء محاضرة.. و:

-الاحتراق الذاتي ظاهرة غامضة لا يوجد لها أي تفسير علمي واضح حتى الآن.. تتمثل في احتراق الإنسان دون أن يتبقى منه أي أثر سوى أجزاء بسيطة من جسده.. وقد قدر الخبراء درجة الحرارة التي يتعرض لها الضحايا بـ(1500) درجة مئوية!! وهي درجة هائلة لا يمكن افتعالها إلا باستخدام محارق ضخمة الحجم كتلك التي تستخدم لحرق النفايات أو الجثث!!.. وهناك العديد من الحوادث التي فجرت علامات استفهام لا حصر لها.. لعل أشهرها حادثة الراقصة (مابل آندروز) عندما احترقت بصورة مفاجئة أمام حشد من الجمهور في أحد الأندية الليلية عام ولم يتبقَ منها شيء على الإطلاق!!.. وفي ولاية (فلوريدا) الأمريكية وجدت الأرملة (ماري ريزر) في شقتها محترقة كليا دون أن يتبقَ منها سوى أجزاء بسيطة من جسدها.. في حين وجدت جميع الأواني المنزلية في مطبخها منصهرة تماما!!.. والواقع أن هناك أكثر من مائتي حادثة سجلتها مراجع الطب الشرعي لحالات مشابهة يحترق فيها الناس تماما دون أي سبب يذكر!!.. تاركين خلفهم أجزاء بسيطة من الجسد.. وأحيانا لاشيء على الإطلاق كحادثتنا تلك!!.. وأكثر ما يثير حيرة العلماء في ظاهرة الاحتراق الذاتي هو درجات الحرارة الهائلة التي يتعرض لها الضحايا.. كما أن اندلاع النار دون سبب أمر مستحيل من الناحية العلمية.. وعلى الرغم من اعتراف العلماء بتلك الظاهرة.. إلا أنهم قد عجزوا تماما عن إيجاد أي تفسير علمي أو حتى فرضية بشأنها ([12])..

سكتا لفترة طويلة غير مصدقين ما سمعاه.. ثم سألني (جاسم) في شك:

-ولكن لم يحترق أي شيء آخر في غرفتي برغم درجة الحرارة العالية التي ذكرتها!!..

قلت له ملوحا بيدي:

-هذا أحد ألغاز ظاهرة الاحتراق الذاتي!!.. أحيانا تحترق الضحية وحدها دون شيء آخر في المكان المحيط بها ([13])..

سألني والد (جاسم) في غيظ:

-لماذا لم تقل هذا الكلام إلاّ الآن؟!..

فوجئت بطريقته في الكلام.. فقلت في غيظ مماثل:

-لا تتوقع مني أن أنظر إلى المشهد بلا مبالاة.. ثم أقول بلا مبالاة أيضا: آه.. هذه هي ظاهرة الاحتراق الذاتي التي نسمع عنها كثيرا!!!.. إن هذا الذي أراه لم أره في حياتي.. لا بد من فترة أستجمع فيها خواطري.

أدرك الأب أنه أخطأ بالفعل.. فقال مغمغما بتوتر:

-فلتسمح لي يا (خالد).. إنني لا أدري ما أفعل.. ولدي سيتهم بجريمة قتل!!.. ولن يصدق أحد قصة الاحتراق الآتي هذه..

قلت متنهدا ومصححا:

-إنه الاحتراق الذاتي!!

قال (جاسم) بجرأة غريبة وهو يحاول أن يتمالك نفسه:

-فلنبلغ الشرطة!!..

رد الأب بتوتر وقد سقط عنه تماما قناع الصرامة والخشونة:

-ولكن الأمر لن يمر بهذه البساطة!!.. تحقيقات واستجوابات.. دعك من أهل القتيل.. نحن لم نفكر بهم حتى الآن!!.. ماذا عسانا نقول لهم؟!.. هل سيصدقون قصة الاحتراق الذاتي تلك؟!.. أنا نفسي أكاد لا أصدقها على الرغم من أنها حدثت هنا في بيتي!!!..

وضعت كفي على جبهتي كناية عن هول الموقف.. لقد نسيت كل ما يتعلق بأهل (منصور).. ماذا سنخبرهم؟!.. لا يمكن أن يصدقونا.. وقد يتهموننا بقتله وإخفاء جثته مثلا.. وهذا في واقع الأمر لا يهمني.. لأنني أعلم أنه لا يمكن إدانتنا بالقتل.. لا يوجد دليل أو حتى دافع.. ما يقلقني هو كيف سيكون وقع خبر موت ولدهم.. إنهم سيموتون حزنا عليه!!.. كان المسكين حيا يملأ الأبعاد الأربعة ويتنفس ويحلم ويضحك ويخاف!!.. يا للهول.. إننا في ورطة حقيقية بالفعل!!.. كيف سينتهي الموقف؟!.. كيف سنخرج من هذه الورطة؟ ؟!.. لا نعرف طبعا..

قلت لـ(جاسم) ووالده وأنا أفكر بعمق محاولا لملمة شتاتي:

-إن المرء يختفي لثلاثة أسباب.. أولها الموت سواء عن طريق القتل أو الانتحار أو في حادث..

رمقني (جاسم) في ضيق لما يحمله كلامي من تلميح لا بأس به بأنه مسؤول بشكل مباشر عن احتراق منصور.. وكاد أن يرد علي لولا أنني أشرت له بيدي راجيا أن يدعني أكمل.. و:

-هنا لا بد من وجود جثة!!.. وهذا يجعلنا نستبعد هذا الاحتمال تماما.. لأن لا جثة لدينا!!.. والسبب الثاني للاختفاء هو الاختطاف.. وهنا لا بد من جهة ما تعلن مسؤوليتها وتطالب بفدية وهذا احتمال مستبعد تماما.. لأن كل شيء حدث أمامنا ولم نر أي عملية اختطاف!!.. أما الاحتمال الثالث والأخير هو الهرب.. الهرب من الديون أو من تهديد معين.. وعلينا أيضا أن ننفي

هذا الاحتمال قبل أي شيء آخر.. لأننا لم نر (منصور) يخرج من الغرفة.. كما أن الغرفة تقع في الدور الثاني ولا سبيل للقفز منها مثلا والهرب..

ثم زفرت بقوة وأنا أقول:

-لا يمكن لأي رجل شرطة في العالم أن يبرهن أن هناك جريمة قتل.. بدون جثة لا توجد جريمة.. هذه قاعدة يحفظها رجال الشرطة عن ظهر قلب!!..

رد (جاسم) باهتمام والحزن باديا على ملامحه:

-لا بد أن نبلغ الشرطة بما حدث على الأقل..

قلت بسخرية مريرة:

-تخيل نفسك ووالدك في مخفر شرطة منطقتكم (بيان) تخبرون المحقق أن (منصور) قد تعرض للاحتراق الذاتي!!.. سيبدو مشهدا طريفا بالفعل!!..

ثم نظرت لهما بجدية:

-إذا كان ما حدث هو الاحتراق الذاتي بالفعل فإن هذا يعد أمراً خارقاً للطبيعة.. ولن يستعد أحد لتصديقه.. ناهيك عن الرغبة في سماعه أصلا.. فالناس أعداء ما يجهلون والرفض عندهم يسبق التصديق.. هذه حقيقة!!.

سكتا تماما ولم يجد أي منهما ردا على كلامي.. فسكت أنا أيضا مفكرا بعمق في طريقة نخرج بها من هذا المأزق.. ثم سألت (جاسم) بعينين شبه مغمضتين كعادتي حين أكون غارقا في تفكير عميق:

-لماذا تأخرت عندما استأذنتني للذهاب إلى غرفتك وتركتني في غرفة الجلوس مع والدك؟!..

غمغم قائلا بحرج:

-إنني أعاني من الإسهال منذ بضعة أيام.. وقد قضيت وقتا طويلا في الحمام.. قبل أن أعود إلى غرفتي لاستبدال ثيابي وجلب كتبي حين طرق (منصور) باب غرفتي!!..

أومأ الأب برأسه موافقا وكأنه يعلم بهذا.. ثم سألت (جاسم) أهم سؤال في القضية:

-ما هو سبب العداء بينك وبين (منصور)؟!..

بدا واضحا أنني عزفت على الوتر الحساس.. إذ أشاح (جاسم) بوجهه وهو يقول بعصبية:

-أرجوك يا (خالد) لا تسألني هذا السؤال؟!..

سألته بعصبية مماثلة:

-لا يوجد مجال لإخفاء شيء الآن.. يجب كشف كل الأوراق!!.. أرجوك تكلم!!..

نظر (جاسم) إلى والده في حرج وغمغم قائلا:

-لقد كانت تربطني علاقة حب بفتاة.. لكن (منصور) سرقها مني!!..

قال هذه العبارة وقد فاحت رائحة الحرج من صوته حتى كدت أشتم لها رائحة بالفعل.. فغالبا ما يكون من الصعب على المراهق أن يذكر شيئا كهذا أمام والده!!..

لكن الأب لم يعلق على الأمر.. وبدا وكأن الأمر لا يعنيه إطلاقا كعادتنا في وطننا العربي الحبيب.. فلو كانت ابنته من اعترفت بعلاقتها بشاب مثلا لعلق لها حبل المشنقة!! الرجل لا يخطئ في مجتمعنا.. لكن الفتاة هي من تجلب العار.. هي من تخطيء فقط..

طرحت هذه الأفكار جانبا وأنا أقول:

-لقد توقعت أمرا كهذا ولكن.. كيف سرق فتاتك منك؟!..

قال بغيظ وكأنني أثرت فيه ذكرى مريرة يحاول نسيانها:

- لا أعرف كيف فعلها.. لكنه مارس معها نوعا من غسيل المخ بملاحقتها ونقل أخبار غير صحيحة عني ووضعي في مآزق تظهرني بمظهر المخطئ أمامها!!.. إلى أن اتصلت بي الفتاة ذات يوم لتخبرني بأنها ستنهي علاقتها معي.. وأنها تحب (منصور)!!!..

صعقت من هذا الكلام.. هل من الممكن أن يفعل (منصور) شيئا كهذا؟!..

قطع الأب حبل أفكاري وسأل فجأة وكأنه لم يهتم بكل ما قاله (جاسم):

- لماذا لم يصرخ المسكين على الأقل؟؟!!.. هل يعقل أن يحترق هكذا ولا نسمعه يتألم أو يصرخ؟!!.

قلت محاولا أن أستجمع أفكاري:

-ربما لم يكن هناك وقتا للألم!!.. يبدو أن مركز الألم نفسه قد تبخر تماما!!.. إن قضية الاحتراق الذاتي لغز لم تفك طلاسمه حتى الآن على الرغم من كثرة الأبحاث والدراسات التي أجريت بشأنها!!.. لقد عرف العلماء عن الأمر الكثير.. لكنهم لم يعرفوا شيئا على الإطلاق!!.. ولا يوجد أي تناقض في كلامي.. فلم يظفروا حتى الآن بتفسير مريح أو منطقي..

هز الأب رأسه بقوة نفيا وهو يقول:

-إنني أحاول أن أصدق قصة الاحتراق الذاتي تلك!!.. ولكن.. ولكن.. لا زلت عاجزا عن تصديق هذا الهراء.. هل تريدون مني أن أصدق أن شخصا يفيض بالحياة قد تبخر في لحظات؟ !!..

قلت بنفاد صبر:

-سيدي.. الاحتراق الذاتي حقيقة.. وقد ذكرت لك هذا وإن أبى عقلك تصديقه..

ثم أردفت قائلا:

-ربما يكون تفسير الاحتراق الذاتي هو الإرادة.. فهناك احتمال.. مجرد احتمال.. أن يكون (منصور) قد احترق بقوة الإرادة.. قوة إرادة (جاسم) وطاقة غضبه!!..

وجهت نظري ناحية (جاسم) وأنا أقول:

-لقد شعرت بغضب هائل من تصرفات (منصور) وربما تجمع غضبك كله في رغبة عارمة لتأديبه وحرقه.. وتحولت هذه الرغبة إلى إرادة قوية تسعى للانتقام.. وهذه الإرادة تحولت إلى طاقة تسببت بكل هذا..

قال والد (جاسم) بسخرية غاضبة:

-ما هذا الكلام الفارغ؟!.. هل لدينا وقت لنستمع إلى هذا الهراء؟!..

قلت له غير مبالٍ:

-إن الجسد البشري يمتلك قدرات مذهلة لا تظهر إلا في الأوقات التي يزيد فيها الانفعال عن معدله الطبيعي يا سيدي.. إن علم (الباراسيكولوجي) يؤكد هذا.

سألني في حيرة:

-وما هو علم البارا.... ؟!..

لم يستطع إكمال الكلمة.. فقلت له مرددا الكلمة مرة أخرى ببطء:

-علم (الباراسيكولوجي).. (بارا) بادئة يونانية معناها (جوار أو وراء) و(سيكولوجي) هو علم النفس بالطبع.. أي أن المصطلح يعني (ما وراء علم النفس).. فهذا العلم يختص بدراسة الحواس التي نملكها ولا نعرف أننا نملكها!!.. وهي حواس غير تلك الخمس المعروفة لنا.. يقال أنها كانت عند أجدادنا البدائيين لكنها انقرضت بفعل التمدن.. أما الحيوانات فلا زالت تملك هذه الحواس.. إنها تشعر -على سبيل المثال-بدنو الزلازل.. ربما لأن الحضارة لم تطغ على حواسها المرهفة ([14])!!.. هذه علوم قد تبدو للبعض هراء في بادئ الأمر.. لكنها ليست كذلك.. إنها فقط علوم لم نفك طلاسمها بعد.. وإذا كنتما تريان أنها هراء فأرجوكما أخبراني.. لماذا يدق الهاتف أحيانا حين تفكر بصديقك ويتضح أنه هو؟ ؟!.. لماذا تشعر الأم بانقباض حين يجرح ابنها في ميدان الحرب مثلا؟!.. لماذا يشعر الإنسان أحيانا كثيرة بالهجوم من الخلف قبل أن يحدث؟!..

قال الأب بحدة وكأنه مل من هذه المعلومات:

-ولكن كيف.. كيف يحدث كل هذا؟!..

قلت له بأدب:

- كيف؟!.. لا يوجد عندي جواب.. كل المعطيات التي لدينا تقول أن ما حدث ليس بجريمة قتل!!.. إن القصة توشك أن تضاف إلى سجل الجرائم الغامضة وضد مجهول..

قال (جاسم) بألم:

-تأكد من أمر واحد يا (خالد) وأنت كذلك يا أبي.. لا يمكن أن أقتل يوما من الأيام!!.. إن هذا مستحيل.. قد أكون في رأيك أحمقا وفاشلا في الكلية يا أبي.. لكنني لا أقتل أبدا.. إنني أكره قتل الحيوانات فما بالكما بالبشر؟!!!..

لم ألتفت إلى إجابته.. بل سألت الأب:

-هل تعتقد يا سيدي أن (جاسم) يمكنه قتل (منصور)؟ !!..

هز رأسه نفيا دون أن يرد.. بالطبع سيدافع عن ولده.. فهو أب أولا وأخيرا مهما كان قاسيا أو صارما..

ثم قلّب كفيه ومط شفتيه وهو يقول في حيرة:

-ليتني أستطيع إجابتك.. إن الأمر أكثر غرابة من أن أجد له تفسيرا.. وحتى ما قلته لنا لا يمكنني أن أقتنع به.. ولن يقبل أحد بشهادتنا أصلا!!

قلت له مستدركا:

-أنا وأنت لسنا شهودا يا سيدي.. كل ما رأيناه هو ذهاب (منصور) لغرفة (جاسم) وسماعنا لشجارهما.. وهذه ليست شهادة!!..

قطب الأب حاجبيه.. وقال باستغراب:

-ماذا تعني بقولك هذا؟!.. لم تمض أكثر من دقيقتين على أبعد تقدير ما بين اختفاء (منصور) ودخولنا إلى الغرفة لرؤية بقايا الحادث.. كيف يمكن ل(جاسم) أن يدبر جريمة قتل في هذا الوقت القصير؟!.. إن القاتل يحتاج إلى قتل (منصور) وإخفاء جثته!!.. ثم وضع ثيابه بطريقة توحي وكأنه احترق وهو مرتديها.. ثم أن ولدي لا يقتل.. أنا واثق من هذا!!!..

عند هذا الكلام بالذات انتفضت بقوة.. بالفعل.. فوالد (جاسم) وأنا لسنا شهودا على أي شيء!!.. تحدثت طويلا عن الاحتراق الذاتي.. وبكل بساطة تناسيت أن أحدا لم ير ما حدث سوى (جاسم)!!.. فهو الوحيد الذي رأى (منصور) رحمه الله يحترق ذاتيا.. هناك أمر غريب يحدث!!.. بدأت أفكر في أنني انجرفت لا شعوريا للبحث عن تفسير ميتافيزيقي لهذه القصة.. وهذا خطأ!!.. لا يمكن أن أخضع للاحتمال الميتافيزيقي فقط!!.. ولو أخضعنا الحادثة لاحتمال آخر فسيختلف الأمر تماما.. الاحتمال البوليسي!!!.. عندها ستتغير كل المعطيات.. ولكن هل هناك احتمال بوليسي فعلا؟!.. هل هناك قضية قتل مثلا؟!.. لماذا أفكر في الاحتمال البوليسي الآن؟!.. ربما السبب هو أن حادثة الاحتراق الذاتي لا يمكن أن تحدث بهذه البساطة!!.. صحيح أنني مصيبة تمشي على قدمين.. وأنني وكيل النحس في كوكب الأرض.. وصحيح أيضا أنني رأيت ما لم يره إنسان!!.. ولكن.. ولكن.. ليس إلى هذا الحد!!..

الاحتمال البوليسي.. مرة أخرى يلح علي هذا الخاطر!!.. فلندرس الأمر جيدا.. لا يوجد شهود في هذه القصة سوى (جاسم) وهو ربما -أقول ربما- يملك الدافع لقتل (منصور).. فكراهيته له شديدة.. وربما كان سبب العداء بينهما أكبر من مجرد فتاة.. من يدري؟!..

التفت إلى الأب أسأله في شرود:

-هل هناك أي مخابئ سرية في هذه الغرفة؟!

قال لي بعصبية:

-ما هذا الهراء؟!

سألته بإصرار:

-ألا يوجد حتى مخبأ صغير يكفي لإخفاء جثة إنسان؟!..

هز رأسه نفيا بقوة..

لا زلت غارقا في تفكير عميق!!.. هل يمارس (جاسم) السحر مثلا؟!.. على قدر علمي لم يتوقف الإنسان عن ممارسة السحر منذ فجر التاريخ حتى هذه اللحظة وفي كل مكان في العالم..

جلست على فراش (جاسم) بعد أن تعبت من الوقوف.. وشرعت أتأمل ثياب (منصور).. واستجمعت قطرات شجاعتي لأمسك بثيابه باحثا عن.. لا أدري.. أي شيء قد يكشف لنا ما يحدث.. وبدأت لا شعوريا أكلم نفسي بخفوت:

- ترى أي لغز تحمل يا (منصور).. أنت أعقد لغز عرفته في حياتي بأكملها!!.. فأنت الشاهد والضحية في آن واحد.. ترى.. أتتمنى روحك أن نجد قاتلها؟!.. أم أنها تسخر منا الآن؟!..

سمعت صوت (جاسم) يقول ساخرا:

-أتحدث نفسك.. أم أنك جننت أخيرا؟ ؟!..

استدرت بهدوء وقلت ببرود شديد:

-تدهشني قدرتك على الضحك والسخرية.. إزاء هذه المأساة..

ظهر التأثر فجأة على وجهه.. وقال بأسى:

-لا تسرع في الحكم على الظواهر.. هناك بيت شعري قديم يقول: لا تحسبوا رقصي بينكم طربا.. فالطير يرقص مذبوحا من الألم!!..

ثم انتبه إلى لهجتي في السؤال.. فقال باستنكار واضح:

-دع تفكيرك البوليسي جانبا.. لو كنت تظن أن كل ما يحدث مؤامرة معقدة دبرتها أنا للتخلص من (منصور).. فأنت مخطئ.. ثم ماذا عن ملحمة الميتافيزيقيا التي أتحفتنا بها.. كيف تغير تفكيرك الآن؟؟؟!!..

قلت بحنق لأنني أعلم أنه محق:

-فلتعلم يا (جاسم) إننا في ورطة.. أما أنت.. ففي كارثة..

رد بحنق مماثل:

-أتحاول اتهامي لمجرد أنك تعجز عن تفسير ما حدث ل(منصور)؟!..

قلت بحدة:

-هل لديك أنت تفسير مناسب؟ !!..

-لقد أخبرتك بما حدث.. لكنك ترفض الاقتناع بكلامي.. إنه وقتك أنت الذي يضيع..

تبادل كلانا نظرة التحدي لفترة طويلة.. ثم قلت في برود:

-اسمع أيها المهرج.. بدأت أشك أن هناك خدعة عبقرية خلف حادث الاحتراق الذاتي المزعوم هذا.. ولن يهدأ لي بال حتى أكشفها.. لا أستبعد أنك قتلت (منصور)..

رد باستفزاز على اتهامي له:

-سيدهشني أن تفعل هذا..

قلت ساخرا مطقطقا بلساني:

- في لحظة تتحول سخريتك إلى حزن مؤثر وتعود بعدها لتتحدث باستفزاز؟ !!.. أنت ممثل عظيم.. ممثل عظيم بحق!!..

كانت ابتسامة ساخرة ترتسم على شفتي ردا على استفزازه.. ولكن!!!!.. تجمدت الابتسامة فجأة!!.. وتحولت شيئا فشيئا إلى ذهول!!.. ذهول جعلني أشهق!!.. نعم.. إنه ممثل عظيم.. إنه ممثل عظيم.. إنه يعشق التمثيل.. ووالده لا يريده أن يمثل.. هذه النقاط بدأت تكشف لي الحقيقة.. يا إلهي!!.. لحظة.. لقد كانت زيارة (منصور) مفاجئة!!.

لقد جاء (منصور) بإرادته دون دعوة من أحد!!!.. وهذا ينفي تماما فكرة حدوث جريمة مع سبق

الإصرار والترصد!!.. الأمور تتضح الآن!!.. هذا يعني.. هذا يعني..!!.. و.. شيئا فشيئا ابتسمت.. وتحولت ابتسامتي إلى ضحكة مجلجلة!!.. ضحكة زادت من دهشة والد (جاسم).. ضحكت في هستيريا.. ضحكت في تلذذ.. ضحكت حتى دمعت عيناي.. بينما يرمقني الأب في غباء ممزوج بالغيظ وهو يتساءل عما حدث لهذا الأبله الذي هو أنا.. وفي النهاية تمالكت أعصابي وقلت بانفعال شديد:

-ابنك ممثل عظيم يا سيدي.. إنه أعظم ممثل رأيته في حياتي.. إنه ممثل عبقري قلما يجود الزمان بمثله!!..

زادت دهشة الأب حين أطلق (جاسم) ضحكة عالية مرحة هو الآخر وهو يقول في حماس:

-رائع يا (خالد).. يبدو أنك توصلت إلى حل اللغز.. لقد مللت الانتظار قبل أن يكشف أحدكما الأمر!!.. حتى كدت أن أكشف لكما كل شيء بنفسي!!.. فلتخبر والدي بما توصلت إليه.. أرجوك!!..

ابتسمت بود.. والتفت للأب والابتسامة لم تفارق وجهي الذي بدت عليه علامات الارتياح الشديد.. و..:

-فلتستمع إلي يا سيدي.. أعرني انتباهك لتسمع أغرب قصة سأقصها عليك.. بل هي أغرب قصة قد تسمعها في حياتك.. قصة ولدك (جاسم) الذي أعتبره أعظم ممثلي عصره!!..

ابتسم (جاسم) بارتياح وهو يقول:

-أشكرك يا (خالد).. لن أنسى مجاملتك أبدا!!..

صرخ الأب قائلا في غيظ:

-هلا يخبرني أحد ما يجري هنا؟!..

نظرت له مبتسما.. وكمن يريد إلقاء محاضرة:

-عفوا سيدي.. فلنراجع ما نعرف أولا!!.. لقد أثارت انتباهي عدة نقاط في البداية.. عداء غير مبرر بين شخصين لم أقتنع كثيرا بأسبابه.. زيارة (منصور) المفاجئة!!.. توجهه إلى غرفة (جاسم) دون أن يسألنا عن مكانها وهو أمر لم أنتبه له سوى الآن.. فكيف يعلم بمكان غرفة (جاسم) وهو لم يأت إلى منزلكم من قبل؟!!!.. وهناك أمر آخر.. كيف يرتكب (جاسم) جريمة في هذه الفترة القصيرة دون أي تخطيط مسبق؟ !!.. إذ لم يكن يعلم أن (منصور) سيزوره اليوم.. ولماذا يرتكب الجريمة هنا في البيت أصلاً؟!.. لو فعلها في ثورة غضب فسيستحيل عليه أن يخفي كل معالم الجريمة في غرفته وفي أقل من دقيقتين!!.. أسئلة منطقية للغاية تقف في صف (جاسم) وتبرئه من القتل.. وترغمنا إرغاما على التفكير في سبب خارق للطبيعة.. وهو أن يكون (منصور) قد احترق ذاتيا!!.. خاصة مع شهادة (جاسم).. وهذا يقودنا لسؤال آخر.. هل من الممكن أن يحدث الاحتراق الذاتي بهذه البساطة؟ !!.. تلك الظاهرة شديدة الندرة والتي تعتبر أحد أكبر ألغاز العالم؟!..

قاطعني الأب بنفاد صبر:

-هل تريد أن تزيد القصة غموضا؟ ؟!.. أم تكشف لنا ما يحدث هنا؟!..

ابتسمت ابتسامة معسولة.. وقلت كما لو كنت أدعو طفلا إلى التعقل:

-اصبر على رزقك.. دع لي الفرصة لاستكمال كلامي.. أين كنا؟!.. آه.. كنت أقول أن هذا هو المشهد كما بدا لنا.. ولكن هناك قصة بالغة الغرابة كانت تجري خلف الكواليس.. ولا يعلم بتفاصيلها سوى هذا العبقري!!.. ثم أشرت بيدي إلى (جاسم) الذي ابتسم بفخر مليء بالخجل..

سألني الأب باستغراب:

-هل تعني أنك وجدت الإجابة على كل هذه التساؤلات؟!..

-نعم يا سيدي.. وهذا الجواب بسيط للغاية.. وهو أنه لم يكن هناك وجود ل(منصور) هذا.. لم يكن له وجود حقيقي على الإطلاق!!!!..

انتفض الأب غضبا وقال بصرامة:

-ما هذا الهراء الذي تقوله يا (خالد)؟!.. لقد تعاملت مع (منصور) بنفسي.. وهو بشر من لحم ودم.. وتحدثت معه أمامك.. أنت نفسك رأيته وتحدثت معه.

انفجر (جاسم) ضاحكا وسط ذهول الأب.. وابتسمت بدوري قائلا:

-هذا يثبت تفوق ابنك.. فحتى أنت كممثل قديم محترف لم يمكنك أن تكشف أن (منصور) و(جاسم) هما وجهان لعملة واحدة!!..

ازدادت ملامح الأب بلاهة وهو يقول ويحدق في وجه ابنه بذهول:

-ولكن هذا مستحيل.. هل تعني أن....

قاطعته بحزم:

-نعم.. (جاسم) و(منصور) هما شخص واحد..

انتفض الأب في مكانه وهو يقول:

-هذا مستحيل.. مستحيل.. إنني لا أصدق أُذنيّ..

قلت مؤمنا على كلامه:

-بالفعل.. يكاد يكون الأمر مستحيلا!!.. لقد شعر (جاسم) أن لا مستقبل له في كلية الطب وأنك لا تترك له خيار التمثيل الذي يعشقه حتى النخاع.. فأخذ يبحث عن وسيلة لإقناعك.. وبوجود شاهد تحترمه وتتمنى من ابنك أن يصبح مثله كما كنت تقول دائما!!.. وهو -بلا فخر-أنا!!.. فأراد أن يبين لك بأنه هو الآخر متفوق.. بل وعبقري في مجال آخر لا تريده أنت له.. مجال التمثيل!!.. لذا فقد هداه تفكيره إلى اختراع شخصية وهمية مع عمل مسرحية متكاملة وبحبكة رائعة هي التي عشناها خلال الساعة الماضية!!.. إن ولدك عبقري بالفعل.. ليس فقط في مجال التمثيل.. بل في قدرته على تحويل نفسه بواسطة الماكياج المتقن والحنجرة المرنة إلى (منصور)!!.. تماما كما فعلها من قبل الممثل العالمي (روبن ويليامز) في الفيلم الشهير (السيدة داوت فاير) والممثل العالمي الآخر (إدي ميرفي) في الثنائية الشهيرة (البروفيسور المعتوه) عندما قام بتمثيل 5 أدوار مختلفة دفعة واحدة!!..

سكت قليلا لأرى تأثير كلامي عليه.. ثم قلت بحماس شديد:

-لقد تعمد (جاسم) أن يتأخر في غرفته كي يتقمص شخصية (منصور) مستخدما الماكياج بدقة.. وقد أعد العدة لخطته منذ فترة وافتعل شجارا في الكلية ليكسب صداقتي في تلك الشخصية..

وأخبرك منذ مدة أنه مصاب بالإسهال حتى لا ينتابنا أي شك في حال تأخره في النزول لمواصلة الدراسة معي!!.. ومن ثم تسلل من الباب الخلفي للبيت ليأتي ويطرق الباب علينا متنكرا بشخصية (منصور)!!.. ليذهب بعدها إلى غرفة (جاسم) -التي كانت خالية دون أن نعلم- متعللا أنه يرغب في الحديث معه.. ثم قفل الباب على نفسه حتى لا نفسد خطته وبتصرف أثار استغرابي حينها!!.. وبينما نحن ننتظر عند باب الغرفة بقلق!!.. لعب (جاسم) أعظم أدواره في الحياة!!.. فأخذ بواسطة حنجرته المرنة يتحدث بصوتين ويفتعل شجارا بينه وبين شخصية (منصور) التي مثّلها.. وفي هذه الأثناء كان يبدل ثيابه ويزيل عن وجهه الماكياج.. وبعد أن انتهى أخرج قطعة فسفور -أو المغنيسيوم على الأرجح- وأحرقها لتعطي هذا الصوت الذي يشبه فحيح الأفاعي.. وهي الرائحة التي ملأت جو الغرفة عندما دخلناها.. ثم فتح الباب لنا راسما علامات الذهول على وجهه محاولا إقناعنا بأن منصور قد احترق ذاتيا.. إذ يبدو أنه قرأ عن حوادث الاحتراق الذاتي الحقيقية والتي أوحت له بتلك الخطة العبقرية..

سألني والده وعيناه زائغتان كمن أصابته صعقة كهربائية:

-ولكن لماذا فعل كل هذا؟!..

- الجواب واضح يا سيدي وقد أخبرتك به.. لإقناعك بموهبته التمثيلية!!.. وأنه خلق للتمثيل وليس للطب.. فلم يكن ليقنعك أبدا لو مثل دورا أمامك مثلا.. لأنك ستنظر له بتحيزات مسبقة كونك لا تريده أن ينخرط في هذا المجال أصلاً..

سكت والتفت إلى (جاسم) مبتسما بإعجاب:

-هل أخطأت في شيء يا (جاسم)؟!..

قال بجذل:

-مطلقا يا أذكى من عرفت.. لقد قصصت الأمر كما لو كنت تعيش في أعماقي منذ البداية!!..

التفت إلى والده الذي بدا جامدا تماما.. فقال بحرج ممزوجا بالتوتر:

-المعذرة يا أبي.. صدقني لا حيلة لي في عشقي للتمثيل.. أشعر أنني جئت إلى الدنيا لهذا الهدف!!.. ولا أعرف أي هدف آخر للحياة.. لم يكن لدي خيار آخر لإقناعك.. صدقني يا أبي.. لقد شعرت وأنا أؤدي دوري بأنني أنهض.. أنفض الغبار عن نفسي وأحك عيني بعد سنوات من السبات.. أرجوك لا تحرمني من ممارسة التمثيل.. أرجوك.. أرجوك!!..

قالها مرة أخيرة بضراعة وبعينين دامعتين:

-أرجوك..

نهض الأب فجأة وهو يقول بصرامته المقيتة:

-هل تعني أن (خالد) كان على حق؟ ؟!.. وأنك ظللت تخدعني وأتلفت أعصابي طوال هذا الوقت عن عمد؟!..

قال (جاسم) بقلق وقد أدرك حقيقة موقفه!!.. فهو لم يضع أي احتمال لرفض والده وعدم تقبله للأمر.. ليخرج صوته متحشرجا بعض الشيء و هو يقول برجاء حزين:

-أبي.. لقد كان هذا أملي الأخير.. فلنقل أنها كانت محاولة يائسة.. والشاه لا يضيرها سلخها بعد

ذبحها!!..

سكت والده طويلا.. وأغمض عينيه وكأنه يعاني صراعا داخليا.. ثم زفر بقوة وقال لولده:

- نعم لقد أغضبتني.. أغضبتني إلى حد يجعلني أطالب ألا نتأخر أكثر من هذا.. ستلتحق منذ الفصل القادم بالمعهد العالي للفنون المسرحية..

صرخ جاسم في سعادة حقيقية:

-يا إلهي.. هل تعني ما تقول يا أبي..

لم أتوقع أن تكون ردة فعل الأب بهذه الصورة.. فقد اغرورقت عيناه بالدموع.. وأمسك وجه ولده بكفيه وهو يقول بحنان بالغ:

-لقد كنت أعمى يا ولدي.. وقد جعلتني أفتح عينيّ أخيرا.. أرجوك اغفر لي..

قالها واحتضن ولده بقوة.. ليجهش (جاسم) في بكاء حار أثار مشاعري كثيرا.. حتى بدأت دموعه تسيل من كل فتحات وجهه!!.. بينما كان الأب يداري دموعه بصعوبة كما بدا لي!!.. إنني أعرف هذه الأعراض.. إنه انفجار عاطفي.. وهذا يحدث لنا جميعا!!.. حيث تختلط الأمور عند الإنسان من شدة الفرح.. فتجده يقول وهو يبكي فرحا:

-أحب حبيبتي بجنون.. أحب أصدقائي.. الحياة رائعة.. الناس طيبون..

إنني واثق تماما أن الأب لم يكن ليتأثر بكل ما حدث لو لم يكن هو الآخر ممثلا محترفا.. لأنه يعرف جيدا أبعاد موهبة ولده.. يعرفها أكثر مني!!..

فكان يقول وهو يضم ولده:

- من العار أن ينتهي ممثل رائع مثلك قبل أن يبدأ.. ولو قضيت حياتك تائها في دراسة تخصص آخر.. فإن الجلد بالسياط لن يكفي لإراحة ضميري!!..

كان مشهدا رائعا.. لذة اكتشاف أعماقك الإنسانية.. اكتشاف أنك آدمي وتحمل إحساسا بهذا العمق والنبل!!.. إلى أن هدأ الاثنان أخيرا.. وتذكرا وجودي وقد بدت على وجهي علامات التأثر مما يحدث..

فقال (جاسم) وهو يمسح دموعه:

-يؤسفني أنني أقحمتك في هذه القصة يا (خالد)..

ابتسمت لأقول له:

-لا عليك.. إنني لن أنسى تلك الحادثة ما حييت..

ثم قلت له ناصحا مبتسما:

-تذكر يا (جاسم) إنك تستطيع دائما أن تبدأ من جديد.. إن البدايات الجديدة حق متاح للجميع.. ولا تنس أن البدايات الجديدة لمجموعة من المهاجرين هي التي خلقت (الولايات المتحدة الأمريكية) !!.. ينتظرك الآن مستقبلا زاهرا.. وأنا أكره أن أراك فاشلا يا (جاسم).. أرجوك كن حذرا..

ثم زفرت وأنا أستطرد:

-لست بارعا في النصح يا صديقي.. ولكن.. تذكر فقط أن تفعل الصواب وتكف عن الخطأ.. وهي نصيحة عسيرة جدا في تنفيذها.. خاصة حين تتخرج بإذن الله.. ويغدو الخط الفاصل بين الصواب والخطأ مطاطا نحركه يمينا ويسارا حسب مصالحنا.. وقتها فقط حاول أن تتذكر مثاليتك وطهارتك الآن..

و.. ولم يعد هناك ما يقال!!.. تركتهما مودعا.. على أمل أن أراهما مرة أخرى.. وهي من الوعود التي لا ننفذها أبدا!!.. فكل منا ستكون له حياته وارتباطاته.. وإذا كنتم -كعادتكم- تشككون في وقائع القصة.. فانتظروا أعواما قليلة ليظهر لكم ممثلا قلما يجود الزمان بمثله.. عندها ستعرفونه وتعرفون والده.

إنها قصة عجيبة بالفعل وطريفة بنفس الوقت.. من القصص التي توجه فكر القارئ إلى اتجاه خاطئ ثم تصحح الأمر.. وهي لعبة قديمة مارسها (تشارلي شابلن) في اللقطة التي تظهره منحنيا على حاجز سفينة وظهره يتلوى كأنه يتقيأ.. ثم يستدير لنا فإذا به يحمل خيطا تتدلى منه سمكة!!..

لقد أطلقت على هذه القصة اسم: الظاهرة.. ولا زلت أجهل في واقع الأمر معنى الاسم.. هل كان (جاسم) هو الظاهرة؟!.. أم أنني عنيت ظاهرة الاحتراق الذاتي؟!.. لا أعلم.. الأمر متروك لكم لتفسيره كما تريدون!!..

إن هذه القصة لهي واحدة من أجمل ذكرياتي.. لماذا؟!.. لأنني كنت واقفا خلف المدفع لا أمامه!!.. ولم يكن هناك خطرا محدقا بي كما حدث في كل تجاربي السابقة تقريبا.. لقد بدأت أشتاق للأيام التي كانت فيها حياتي شبيهة بالنهر الراكد المريح!!.. إن الأنهار مملة لا شك.. لكنها على الأقل لا تحرمك النوم.. أريد أن تكون حياتي نهرا هادئا.. تعرف في كل لحظة أين سيكون في اللحظة التالية.. فالسعادة بالنسبة لي هي السريان المنتظم الهادئ.. قد أكون في غاية الاكتفاء الذاتي والنضج الفلسفي لأفكر بهذه الصورة.. وربما أكون مجرد بقرة راضية عن مرعاها!!.

هل سيحدث هذا؟!.. هل سأنعم بالهدوء وأعيش كباقي من هم في مثل عمري؟!.. هل ستنتهي آلامي؟!.. هل قصتي السابقة هي آخر قصصي؟!.. بالطبع لا.. إنني سجين عوالم ما وراء الطبيعة التي أوقعتني في شرك محكم.. شرك من النوع الذي يفهمه الفأر على الفور حين يترك نفسه لمخالب القط تعابثه.. إنه أحكم من أن يضيع وقته ووقت القط في محاولات فرار لا تجدي.

ربما سأخبركم بالمزيد لاحقا.. ربما أخبركم بقصص أخرى وأخرى من تلك التي أعيشها بين حين وآخر في تلك الأبعاد التي لم يعشها سواي.. الأبعاد المجهولة!!.

(تم الكتاب بحمد الله)



Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

فهرس المحتويات:

الملاحظات

[←1]

(1) عزيزي القارئ.. إذا لم تكن قد قرأت الجزء الأول من مذكراتي فإنني أرجوك أن تفعل.. إنك بهذا تزيح عني عبئا ثقيلا في شرح ملخص لأحداث سابقة.

[←2]

(2) جون ميريك (الرجل الفيل).. إحدى أشهر حالات التشوه في تاريخ الطب.. وهو شخصية حقيقية عاشت في القرن الماضي وكان يعاني من تشوه خلقي مروع جعله أقرب إلى فيل بشري.. حتى أطلق عليه بالفعل لقب: الرجل الفيل.. ومن العجيب أن المطرب العالمي غريب الأطوار (مايكل جاكسون) قد دفع مبلغا فادحا لشراء مومياء هذا الرجل الفيل.

[←3]

(3) حقيقة.

[←4]

(4) حقيقة.

[←5]

(5) حقيقة.

[←6]

(6) حقيقة مع الأسف.

[←7]

(7) الأكروفوبيا: الفوبيا هو الخوف المرضي.. الخوف اللامعقول.. والأكروفوبيا -كما يبدو واضحا من الاسم- هو أحد أنواع الفوبيا التي تتولد عند الإنسان.. وتجعله يخشى الأماكن المفتوحة كثيرا.. كالأسواق مثلا.. وقد يصل به الأمر إلى الخوف من الخروج من البيت.. فتجده يقبع في مكان مغلق ولا يتركه أبدا.. ولو أجبرناه على الخروج فسيصاب بارتعاشات عنيفة وعرق غزير.. وأعراض قد تبلغ حد التخشب.. أو الغيبوبة.. أو حتى الموت في حالات نادرة.

[←8]

(8) في عام 1972 سقطت طائرة تقل فريقا للرجبي وسط الجبال الشاهقة بين (الأوروغواي) و(تشيلي).. في منطقة معزولة تماما لم تطلها فرق البحث.. وقد توفي 29 راكبا أثناء سقوط الطائرة أو لاحقا بسبب الإصابات.. في حين تبقى 16 ناجيا عاشوا أياما طويلة وسط الجبال.. ومع نفاد الأطعمة وعدم وجود أي نباتات في الجبال الثلجية الجرداء.. قادتهم غريزة الجوع والبقاء إلى تصرف مهول!!.. عندما أصبحوا يقتاتون من جثث زملائهم!!.. فقاموا أولا بدفن رؤوس الجثث في الثلوج حتى لا يتعرفوا أصحابها مما قد يخفف من الشعور بالاشمئزاز.. ومن ثم قاموا بأكلهم كي يبقوا على قد الحياة!!.. إلى أن انتهت تلك المأساة بعد 72 يوما عندما وجدتهم مروحية قادت فرق الإنقاذ إليهم وتم إنقاذهم.. وهناك حوادث عديدة مشابهة تبين لنا أن غريزة الجوع والعطش قد يجعلان من الإنسان وحشا مخيفا بالفعل.

[←9]

(9) حقيقة.

[←10]

(10) حقيقة.

[←11]

(11) حقيقة.

[←12]

(12) حقيقة.

[←13]

(13) حقيقة.. وقد تحدث المؤلف عن تلك الظاهرة بالتفصيل في إصداره (خلف أسوار العلم)

[←14]

(14) كل ما ذكر عن علم الباراسيكولوجي حقيقة.